جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية ــ القاهرة
قسم البلاغة والنقد

بلاغة النظم القرآني في آيات الكيل والميزان

تأليف
دكتور/ إبراهيم صلاح الهدهد
أستاذ البلاغة والنقد

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م



مُقَدِّمَة

اللهم إني أحمدك الحمد كله،على أن جعلتني مسلما عربيا،ومننت علي بحفظ كتابك،وأنعمت علي باتباع نبي الهدى، السراج المنير، الذي انداح في الوجود نوره، ومحا الظلام حضوره، فصل يارب عليه صلاة تحبها وترضاها، وعلى آله الطيبين الأطهار، وارض اللهم عن صحابته الأخيار، والسلف الأبرار، وعلمائنا وشيوخنا، والمسلمين وبعد.

فإن كتاب الله سيظل أبدا مائدة الباحثين، ومبتغى الدارسين، وعطاءات تلك المائدة لا تتناهى، كما أن نعم الله لايتناهى مددها، وهذا البحث يتخذ من البلاغة العربية وسيلة لفقه النظم القرآني في آيات الكيل والميزان،وقد قصرت البحث على ما جاء بلفظ الكيل والميزان صراحة، وذلك تحت عنوان ((بلاغة النظم القرآني في آيات الكيل والميزان)) وقد اصطفيت المنهج التحليلي طريقا للوصول إلى سمات البلاغة القرآنية في حديث القرآن عن الكيل والميزان، وهو قائم على إبصار الكلمة في سياق التركيب، وإبصار التركيب في سياق النظم من السورة الوارد فيها، مع فقه سياق الحال الذي يعد

حال النزول جزءا منه، وسياق المقال، الــذي تحــدرت فـــي رحمه الآية، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يخرج في مقدمـــة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وثبت بأهم المصادر والمراجــع وفهرس للموضوعات .

الفصل الأول : بلاغة النظم القرآني في الامتنـــان بـــالميزان والترهيب من عدم الوفاء به وبالكيل.

الفصل الثاني: بلاغة النظم القرآني في آيات الكيل والميــزان في قصص السابقين.

الفصل الثالث : بلاغة النظم القرآني في حديثه عـــن ميــزان الأعمال يوم القيامة .

وإني أسأل الله أن يوفقني فيما إليه قصدت، وأن يغفر لي فيما فيه قصرت، وأن يتقبل عملي هذا عنده، إنه نعم المولى وولي التوفيق والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا ومولانـــا محمـــد وعلى آله وصحبه وأمته.

كتبه /إبراهيم صلاح الهدهد ١٤٢٥هـــ/ ٢٠٠٤م

تمهيد

معنى الكيل :

قال ابن فارس : الكاف والياء واللام ثلاث كلمات لايشبه بعضها بعضا، فالأولى: الكيل: كيل الطعام، يقال: كلت فلانا: أعطيته، واكتلت عليه: أخذت منه . . . والكلمة الثانية: كال الزند يكيل، إذا لم يخرج نارا، والكلمة الثالثة: الكيُّول : مؤخر الصف في الحرب، قال :

إني امرؤ عاهدني خليلي * ألا أقوم الدهر في الكيُّول [١]

(وكيل بعير) أي : مقدار حمل بعير [٢] " والاسم: الكِيلة بالكسر . . . والمكيَل والمكيَلَة: ما كيل به، وكال الدراهم وزنها، وكال الشئ بالشئ: قاسه، وهما يتكايلان : يتعارضان بالشتم . . . وكايله: قال له مثل مقاله، أو فعل كفعله، أو شتمه فأربى عليه. . . ولا تكايل بالدم، أي: لايجوز لك أن

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (ك ي ل) ٥/١٥٠،١٥١ تحقيق عبد السلام هارون، ط، دار الجيل بيروت ١٩٩١م.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ك ي ل) ٤٤٤ تحقيق محمد سيد كيلاني، ط، مصطفى الحلبي ١٩٦١م.

تقتل إلا ثأرك " [1] وفي المثل " أحـشفا وسـوء كيلـة ؟ أي: أتجمع علـيّ أن يكـون المكيـل حـشفا وأن يكـون الكيـل مطففا . . . والمكيال : ما يكال به حديدا كان أو خـشبا . . . والكيل والوزن سواء في معرفة المقادير . . . وكل ما كـان في عهد النبي بمكة والمدينة مكيلا فلا يباع إلا بالكيل، وكل ما كان بها موزونا فلا يباع إلا بـالوزن لـئلا يـدخل الربـا بالتفاضل " [2]

معنى الميزان:

الوزن : معرفة قدر الشئ ، والمتعارف في الوزن عند العامة : ما يقدر بالقسط والقبان [3] قال ابن فـارس :" الـواو والزاء والنون : بناء يدل على تعديل واستقامة . . . والزنـة: قدر وزن الشئ ، والأصل وزنة، ويقال: قام ميزان النهار إذا انتصف النهار، وهذا يوازن ذلك، أي: هو محاذيـه، ووزيـن

---

(1) القاموس المحيط للفيروزآبادي باب اللام فصل الكاف ٤٩/٤ ، ط، دار الجيل،بيروت،دون تاريخ.

(2) لسان العرب لابن منظور (ك ي ل) ٣٩٧٠،٣٩٦٩ ، تحقيق عبد الله الكبير وآخرين ، ط دار المعارف دون تاريخ.

(3) المفردات (وزن) ٥٢٢ .

الرأي معتدله" [1] " وأوزن القوم: أوجههم " [2] " والعرب يسمون الأوزان التي يوزن بها التمر وغيره المسوّاة من الحجارة والحديد : الموازين، واحدها ميزان، وهي المثاقيل واحدها مثقال، ويقال للآلة التي يوزن بها الأشياء ميزان أيضا" [3] وقد يراد بالوزن معان أخر " تقول العرب : ليس لفلان وزن، أي: قدر لخسته " [4]

من حديث السنة عن الكيل والميزان

تحدثت السنة المطهرة كثيرا عن الكيل والميزان بيانا لخطر شأنهما ، ولأن السنة المطهرة بيان للقرآن الكريم ، وقد تعهد الله بحفظها ، كما تعهد بحفظ القرآن الكريم حيث قال : (ثم إن علينا بيانه) (القيامة/١٩) من أجل ما مضى نورد بعض الأحاديث الواردة في الكيل والميزان.

---

(١) مقاييس اللغة (وزن) ١٠٧/٦.

(٢) القاموس المحيط باب النون فصل الواو (وزن) ٢٧٧/٤ .

(٣) لسان العرب لابن منظور (وزن) ٤٨٢٨.

(٤) المصباح المنير لأحمد المقري الفيومي (وزن) ٦٥٨، ط، دار الكتب العلمية ،بيروت، دون تاريخ.

١ــ روي الترمذي في سننه بسنده عن ابن عبــاس ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأصحاب المكيال والميــزان " **إنكم قد وُلّيتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم**"[١]

٢ــ روى ابن ماجة في سننه بسنده عن عبد الله بــن عمــر قال : أقبل علينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقــال : " **يــا معــشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فــيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أســلافهم الــذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخــذوا بالــسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ، ولــم يمنعــوا زكــاة أموالهم إلا منعوا القطر من الــسماء ، ولــولا البهــائم لــم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رســوله إلا ســلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لــم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعــل الله بأسهم بينهم** " [٢]

---

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب البيوع باب ما جاء في المكيال والميزان تحقي محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ.

(٢) رواه ابن ماجة في سننه ، كتاب الفتن باب العقوبات حديث رقم ٤٠١٩، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ،ط دار الريان ،دون تاريخ.

٣ــ روى النسائي في سننه بسنده عن أبي الزبير أنــه ســمع جابر بن عبد الله يقول : نهى رسول الله ــﷺ ــ **عــن بيــع الصُّبرة من التمر لايعلم مكِيلها بالكيل المسمى من التمر**" [١]

٤ــ روى الإمام مالك في الموطأ بسنده عن يحيى بن ســعيد أنه سمع سعيد ابن المسيب يقول: **إذا جئــت أرضــا يوفــون المكيال والميزان فأطل المقام بها، وإذا جئت أرضا ينقّصون المكيال والميزان فأقلل المقام بها**" [٢]

وقد وردت أحاديث كثيرة ، وحسبنا أن الكيل والميزان يتأسس على فقههما ركن من أركان الإسلام، وهو الزكاة .

([١]) رواه النسائي في سننه كتاب البيوع ، باب بيع الصبرة من التمر لايعلم مكيلهــا ٢٦٩/٧.ط دار الريان ١٩٨٧م. الصبرة : الطعام المجتمع كالكومة.

([٢]) رواه الإمام مالك في الموطأ كتاب البيوع حديث رقم ١١٩٢.

الآيات موضوع البحث

١- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]

٢- ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨-٩]

٣- ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥]

٤ ـ ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود: ٨٤-٨٥]

٥- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠﴾ [يوسف: ٥٩-٦٠]

٦- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف: ٦٣]

٧- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف: ٦٥]

٨- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: ٨٨]

٩- ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٩]

١٠- ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: ٣٥]

١١ـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥]

١٢ـ ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ شَيۡـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٍ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]

١٣ـ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]

١٤ـ ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٢]

١٥ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَـٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧]

١٦ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [الرحمن: ٧-٩]

١٧ـ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥ ﴾ [الحديد: ٢٥]

١٨ـ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين: ١-٣]

١٩- ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾ [القارعة: ٦-٩]

****

الفصل الأول

بلاغة النظم القرآني في الامتنان بالميزان والترهيب من عدم الوفاء به وبالكيل

١ ــ قال تعالى :﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢]

الآية الكريمة في نور السياق

وقعت الآية الكريمة في سورة الأنعام،وهي السورة الخامسة والخمسون نزولا، ومقصود السورة " الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد؛ بأنه الحاوي لجميع الكمالات من الإيجاد والإعدام والقدرة على البعث وغيره " (١) فالآية من حيث سياق الحال نزلت

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢/٥٧٨. ط، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٤م.

بمكة،ومقتضى الحال وقتها التحذير من الحرام في كل نواحي الحياة، وكان تطفيف الكيل، والميزان ونقض العهود ،والجرأة على مال اليتيم، كل ذلك كان شائعا عند النزول، وكلـــه خلـــل اجتماعي تتوجه التراكيب لإصلاحه؛ رأبا لصدع المجتمع؛ لذا اشتملت الآية الكريمة على خمسة أساليب إنشائية، والأســـاليب الإنشائية هي الألصق بحال النزول، وبكل حال يشبهه عبـــر الزمان.

وكما لاءمت الآية سياق الحال لاءمت ســـياق المقـــال أيضا، فالحديث عن الكيل والميزان في السورة الكريمة ناظر إلى مفتتح السورة مناد على مطلعها، فقد اختصت السورة في مفتتحهـــا بقولـــه تعـــالى (ثـــم الـــذين كفـــروا بـــربهم يعدلون)(الأنعام/١) ولا نظير لهذا التركيب في الذكر الحكـــيم كله، وقوله (يعدلون) نعي على الكفار باختلال ميزان التفكير حيث يسوون من يخلق بمن لا يخلق، ومن لاشئ له بمن لـــه الخلق والأمر، وقد ذكر الراغب أن معنى (يعدلون) يجعلـــون له عديلا [١] وذكر معاني أخر لا يأباها السياق غير أن ذلـــك هو أعلاها لصوقا بحال النزول وسياق المقال.

---

[١] المفردات (ع د ل) ٣٢٦.

وقد وقعت الآية الكريمة بعد النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق " ولما كان المال عديل الروح من حيث إنه لاقوام لها إلا به، ابتدأ الآية التي تليها بالأموال، ولما كان أعظمها خطرا وحرمة مال اليتيم لضعفه وقلة ناصره ابتدأ به فنهى عن قربه فضلا عن أكله أو شربه . . . ثم ثنى بالمقادير على وجه يعم . . . (الكيل والميزان) لأنهما في الحكم في أموال الأيتام وغيرهم" [1] والترابط بين أجزاء السورة يدلك عليه السياق ، فقبل الآية موضوع البحث بآية نرى ختم الآية بقوله تعالى " ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآتنا والذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون)(الأنعام/١٥٠) وقوله : (يعدلون) من معالم السورة فهو هنا ينادي على مطلع السورة الكريمة .

من عطاء النظم الكريم

الآية الكريمة طوت عدة تراكيب نحاول إبصارها في نسقها من النظم، وقد وردت خمسة تراكيب منها بأساليب إنشائية؛ تناسبا مع سياق ذكر الوصية، والوصية طلب، والطلب إنشاء لاخبر.

---

(١) نظم الدرر ٢/ ٧٤٢ .

التركيب الأول:﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾

وقع هذا التركيب معطوفا بالواو على قوله (ألا تشركوا به شيئا . . .) والأسلوب إنشائي، والنهي حقيقي لا مجازي، إذ المراد من النهي الوجوب، والجملة هي قوله(تقربوا) وما عداه في التركيب قيود.

من أسرار التعبير بـ (تقربوا)

التركيب معلن على التحذير الشديد من الحيف على مال اليتيم، وقد تجلى ذلك في التعبير بالمسند على هذا الوجه، حيث لم يكن تأكلوا مثلا، والنهي عن قربان مال اليتيم أبلغ في التحذير من النهي عن أكل ماله، وفي مجئ المسند إليه ضمير خطاب مزيد عناية، لأن من اعتنى بشئ توجه بالخطاب للمراد منه إنفاذه، مواجهة له بذلك ؛ وتأكيدا للتكليف المنوط به، قال أبو السعود " توجيه النهي إلى قربانه لما فيه من المبالغة في النهي عن قربانه ولإخراج القربان النافع عن حكم النهي بطريق الاستثناء" [1]

([1]) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٣/ ١٩٧. ط دار إحياء التراث العربي بيروت ، دون تاريخ.

ذكر المتعلق وأسراره (مال اليتيم) والاستثناء ودقائقه:

وقع متعلق الفعل معرفا بالإضافة حمــلا للمخــاطبين على الامتثال للنهي لما في اليتم من الضعف وشدة الحاجــة، وقد استثنى من النهي القربان الحسن (إلا بالتي هي أحــسن) لما في ذلك من مصلحة اليتيم، وقد وقع الاستثناء قيدا للمسند، حيث حصر القربان فيما هو حسن ، ونهي عما عــداه، وفــي التعبير بالحسن ملاءمة لكل حال وزمان؛ لذا ذكر الوصــف، وكأنه عنوان يشمل كل ما صدق عليه ، فكلما تــوفر الحــسن جاز القربان.

قيد الفعل بـــ (حتى . . .) ولطائفه:

هذا القيد ليس غاية للنهي، إذ ليس المعنى : فإذا بلــغ أشده فاقربوه؛ لأن هذا يقتضي إباحة أكل الولي له بعد بلــوغ الصبي، بل هو غاية لما يفهم من النهي، كأنه قيل: احفظــوه حتى يصير بالغا رشيدا، فحينئذ سلموه إليه [1] ولعله عبر بـــ (أشده)[2] ولم يعبر بالحلم ؛ حملا للمخاطبين علــى الامتثــال

([1]) ينظر : إرشاد العقل السليم ١٩٧/٣، الفتوحات الإلهية ١٠٩/٢، روح المعاني ٢٩٨/٤.

([2]) اختلف أهل العلم في الأشد ، فقال أهل المدينة : بلوغه وإيناس رشده،وقال أبو حنيفة خمس وعشرون سنة ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو البلوغ، وقيل

للنهي بترقيق قلوبهم؛ ذاك أن أشده تذكر المخاطبين بما عليه اليتيم من الضعف الموجب الشفقة، وفيه مخاطبة للعرب بما يلائم طباعهم وما جبلوا عليه من النخوة والشهامة، وحماية الضعيف.

التركيب الثاني ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾

من أسرار الأمر بالوفاء

الأمر هنا على حقيقته ، وقد ورد الأمر بهذا الفعل في هذا الموضع؛ حملا للمخاطبين على الامتثال بتذكيرهم بما يدّعونه من السخاء والكرم؛ لذا لم يقل : و لاتنقصوا . . . ذاك أن " في اختيار الأمر بالإيفاء اهتماما به لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء ، لا إلى جانب ترك التنقيص ، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذي يتمادحون به" (1) وجاء المسند إليه ضمير خطاب لما ذكرناه في التركيب الماضي من مزيد العناية بالمأمور به ، والظاهر أنه ذكر الكيل أولا لأن الكيل

انتهاء الكهولة ، والأولى في تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء لا مسلك أهل السفه، والتبذير، ويدل على هذا قوله ــ تعالى ــ في سورة النساء (وابتلوا اليتامى. . .) ينظر : فتح القدير ٢/١٧٧ .

(1) التحرير والتنوير ٨/ ١٦٥.

أكثر الموزون عند المخاطبين، فقدم ذكر ما تكثر به المعاملة وأخر ما هو دون ذلك .

القيد بالحال وأسراره (بالقسط)

قوله (بالقسط) " حال من فاعل (أوفوا) أي: أوفوهم مقسطين، أي: متلبسين بالقسط، ويجوز أن يكون حالا من المفعول، أي: أوفوا الكيل والميزان بالقسط،أي: تامين" [1] وفي القيد بالحال هنا مظنة تكرير؛ لأن إيفاء الكيل والميزان هو عين القسط، وقد أجاب العلماء عن ذلك بأن الأمر بالوفاء موجه للمعطي، والقسط موجه للآخذ، وهو معنى قول الفخر ــ رحمه الله ــ " أمر الله المعطي بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصان، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة" [2] والقيد بالحال عند البقاعي مزيل لاحتمال المقاربة؛ لأن من قارب شيئا قيل إنه فعل، فجاء الحال مزيلا هذا الاحتمال، يقول البقاعي : " ولما كان الشئ ربما أطلق على ما قاربه ــ نحو : قد قامت الصلاة، أي : قرب قيامها، وهذا وقت كذا، إذا قرب جدا ــ أزيل هذا الاحتمال بقوله (بالقسط)

---

(1) الفتوحات الإلهية ٨/ ١٦٥.

(2) مفاتيح الغيب ١٢م٦٣١، وينظر حاشية زادة على البيضاوي ٢/٢٢٢.

أي: إيفاء كائنا به من غير إفراط ولا تفريط" [1] وذكر غيره أنه يمكن أن يكون الإتيان بهذه الحال للتأكيد [2] وهما يتعانقان.

التركيب الثالث وأسراره ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

لهذه الجملة موقع بديع أبصره أسلافنا، فقد ذكروا أن هذا التركيب جاء جلبا للتيسير، ودفعا للمشقة؛ ذاك أن التركيب السابق عليه لما أكد على الوفاء بتقييده بالقسط، وهو ما يعني الحذر الشديد في المكيل والموزون في كل حبة وفي كل ذرة، وذلك ربما يكون حاملا للناس على امتناعهم عن المعاملة، وفيه من تعطيل المصالح مافيه، فجاء التركيب الثاني؛ دفعا لذلك، وإليه ذهب الزمخشري حيث قال : " وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك لأن مراعاة الجد من القسط الذي لازيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج،

---

(1) نظم الدرر ٧٤٢/٢.

(2) روح المعاني ٤/ ٢٩٨.

فأمر ببلوغ الوسع، وما وراءه معفو عنه" [1] وقد تابعه في ذلك كثير من المفسرين [2]

ويمكن أن يكون هذا التركيب دالا على أن ما مضى من التكليف في مقدور الناس، وفي وسعهم، وإليه ذهب جمع من المفسرين [3] ولابن جرير ــ رحمه الله ــ تأويل بديع لموقع هذه الجملة ، حيث يقول " لا نكلف من إيفاء الكيل والوزن إلا ما يسعها فيحل لها ولا تحرج فيه، وذلك أن الله ــ جل ثناؤه ــ علم من عباده أن كثيرا منهم تضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لايجب عليها له فأمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو له، ولم يكلفه بالزيادة لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها، وأمر الذي له الحق بأخذ حقه، ولم يكلفه الرضا بأقل منه لما في النقصان عنه من ضيق نفسه فلم يكلف نفسا منهما إلا ما لاحرج فيه ولا ضيق" [4] وهذا بيان

---

(1) الكشاف ٦١/٢.

(2) ينظر : أنوار التنزيل للبيضاوي ٣٣٨،٣٣٧/١ ، تفسير الجلالين بهامشه ١م٣٣٨، إرشاد العقل السليم ١٩٧/٣، الفتوحات الإلهية ٢م١٠٩، روح المعاني ٢٩٩/٤، التحرير والتنوير ١٦٥/٨ .

(3) ينظر : فتح القدير ١٧٨/٢، روح المعاني ٢٩٩/٤ التحرير والتنوير ١٦٥/٨.

(4) جامع البيان للطبري ٦٣/٨.

شاف لموقع هذه الجملة، فالتشريع يكون لرفع الحرج، وتحقيق مصالح العباد، وعليه فهــذه الجملــة إمــا أن تكــون جملــة اعتراضية جاءت ؛ إيذانا بأن مراعاة العدل أمر عسير ،وبــه قال أبو السعود [١] وإما أن تكون جملة استئنافية جيــئ بهــا للترخيص فيما خرج عن الطاقة وبه قال الألوسي [٢]

وإما أن تكون احتراسا، والمقصود من هذا الاحتــراس أن لايترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمة، وهو قول ابن عاشور [٣] ويجوز أن تكون هذه الجملة تذييلا للجمل التي قبلها؛ تسجيلا علــيهم بأن جميع ما دعوا إليه هو في طاقتهم ومكنتهم، وهو قول ثان لابن عاشور [٤] وهذه الأقوال كلها يتيح القول بها موقع هــذه الجملة البديع، وهذه المصطلحات المــذكورة (الاســتئناف ــ الاعتراض ــ الاحتراس ــ التذييل) [٥] متعانقة غير متعاندة،

---

(١) إرشاد العقل السليم ١٩٧/٣، وينظر الفترحات الإلهية ١٠٩/٢.

(٢) روح المعاني ٢٩٩/٤

(٣) التحرير والتنوير ١٦٥/٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٦٦/٨ز

(٥) الاستئناف هو ابتداء معنى جديد، والاعتراض : هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل ، والاحتراس أو التكميل : هو أن يؤتى في كلام يوهم

فالاستئناف ابتداء معنى جديد يؤكد معنى سبقه، والقول بأنها اعتراض يلائمه أن هذه الجملة تخللت جملا متعاطفة، والاحتراس لأن الجملة دفعت توهم تطبيق القسط على أقصى العدل، والتذييل من حيث مجيئ الجملة تعقيبا على تكاليف سبقتها.

التركيب الرابع : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ)

دقائق في بناء الجملة بأسلوب الشرط :

جاءت الجملة شرطية ومن طبيعة الجملة الشرطية أن جزءيها يتعانقان تعانقا شديدا، لما بينهما من التعليق، وأداة الشرط(إذا) " والأصل في(إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه، ولذلك كان الحكم النادر وقعا لـ (إن) لأن النادر غير مقطوع به في غالب الأمر، وغلب لفظ الماضي مع (إذا) لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع؛ نظرا إلى اللفظ " [1] وهذا يعني أن المخاطبين مطالبون بتحقيق العدل فيما تحقق قولا، لا

خلاف المقصود بما يدفعه ، وهو ضربان ك ضرب يتوسط الكلام ، وضرب آخر يقع آخره ، والتذييل : هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد ينظر : الإيضاح ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٩ تحقيق د/ عبد القادر حسين

(١) الإيضاح ١٢١

فيما جرى في الخاطر والفؤاد، وهو مما يدل على أن المؤمن في سعة من القول فبوسعه أن يسكت إذا خشي عدم العدل.

وجاء جواب الشرط مقترنا بالفاء لأنه فعل أمر، وجاء فعلا عاما كفعل الشرط حتى يكون ذلك دستورا عاما لما كـان للكلام فيه نصيب من المعاملات وغيرها، لذا لم يكـن الـنظم فلا تظلموا أو فلا تجوروا ، حتى يكون العدل مطلبـا يـسعى إليه ولا يسكت عنه.

القيد بالحال (وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) **وأسراره :**

ثم جاءت جملة حالية في غاية الإيجاز، وهـي جملـة شرطية أيضا، حذف المسند إليه منها، وتقدير الكلام: ولو كان المقول له أو عليه ذا قربى، والحذف أوجز وأبلغ من الـذكر لما فيه من التعميم، قال ابن عاشور:" والواو في قولـه **(ولـو كان)** واو الحال ولو وصلته تفيد المبالغة في الحال التي مـن شأنها أن يظن السامع عدم شمول الحكم إياها لاختصاصها من بقية الأحوال التي يشملها الحكم " [1] كما أن في الجملة الحالية إلهابا لإعلاء العدل فـوق الأنـساب ووشـائج القربـى، وأن الحرص على إظهاره ومـشايعته أعلـى مـن مـشايعة ذوي

---

(1) التحرير والتنوير ٨/ ١٦٧ .

القربى، ووشيجة القربى هي أعلى الوشائج اعتلاقا بين الناس، وإذا وجب ألا تكون عائقا في وجه العدل، فما دونهـا أولـى بعدم الاعتبار أمام نور الحق وبيانه.

التركيب الخامس (وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ)

عطف هذا التركيب على سابقه وقـد " ختم بالعهـد لجمعه الكل في القول والفعل" [١] والظاهر ــ والله أعلم ــ أن الذكر الحكيم قد ترقى من الأدنى إلى الأعلى في التكليف؛ لأن الأمر بالوفاء بالعهد مع الله أعلى التكاليف المذكورة، وقد يكون في ذكرها آخرا إجمال بعد التفصيل؛ لأن كل ما مضى من التكاليف عهود، وفيه تأكيد على الامتثال لما مضى من التكاليف، وقد جاء التركيب دستورا عاما أيضا لأن عهد الله يشمل كل ما للإنسان وما عليه.

تقديم المجرور على الفعل وأسراره:

تقدم المجرور على الفعل، وفي تقديمه زيادة توكيد وتقرير " للاعتناء بشأنه" [٢] وقد أضيف العهد إلى لفظ الجلالة وهو أهيب أسماء الله ــ عز وعلا ــ وفي ذلك حث على

---

(١) نظم الدرر ٧٤٢/٢.

(٢) روح المعاني ٢٩٩/٤ .

الامتثال وتحقيق الأمر، والملحوظ أن المسند إليه جاء واو جماعة في كل هذه التكاليف لأنها لاتكون إلا في جماعات فناسبتها واو الجماعة؛ لذا لو جاء المسند مفردا لما لاءم سياق الحال.

التركيب السادس (ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ)

وقعت هذه الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال؛ لذا عريت من العاطف، اكتفاء بترابط المعنى فقد جاءت تأكيدا لتعظيم ما مضى، وقد وقع المسند إليه اسم إشارة للبعيد تعظيما لما مضى من الوصايا، ووقع المسند جملة فعلية فعلها ماض بلفظ الوصية لما فيه من إعلاء شان المُوصَى ؛ لأنه لايوصي إلا من كان ذا شأن، وفي ذلك إلهاب على الامتثال وتحقيق الوصية، كما أن فيه إلماعا إلى خطر ما فيها، لأن الوصية لاتكون إلا فيما هو ذو شأن عظيم، وفي إسناد الفعل (وصى) إلى ضمير يعود على لفظ الجلالة إلماع إلى عظم شانها وترهيب من الإخلال بها، لأن الوصية على قدر الموصي فماذا إذا كان الموصي هو الله ــ عز وعلا ــ وقد تعلق بالفعل جار ومجرور (به) بباء الإلصاق للدلالة على ملازمة إنفاذ الوصية والالتصاق بها التصاق الجار بمجروره.

التركيب السابع (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

كشف البقاعي ــ رحمــه الله ــ عــن مناســبة هــذا التركيب لما قبله فقال: " ولما كانت هذه الأقوال شديدا علـــى النفس العدل فيها لكونهـــا شــهوات تقــدم بالترغيــب فيهـــا، والترهيب منها بأن كل من يفعل شيئا منها مع غيره يوشك أن يفعل معه مثله، فلذلك حض على التذكر في الوصــية بهـــا، ولأنها خفية تحتاج إلى شديد تدبر، فقال : (لعلكم تذكرون)[1] وقد ذكرت في بحث آخر [2] أن (لعل) هنا معناهـــا التعليـــل غير أنه عبر بها دون كي إلماعا إلى أن متعلقها مما يتطـــرق إليه التخلف وليست لعل هنا لتوقع المتكلم، كما بينـــت فـــي بحث آخر [3] أن متعلق لعل ورد فعلا مدغما ؛ تناســبا مـــع السياق الذي ورد فيه، فقد ورد في حشد من الوصايا، وهـــذا السياق يلائمه التعبير بالوجه الأخص من التـــذكر لأن العمـــل بها مما يشق على النفس ، وقد ذكر الفخـــر ــ رحمـــه الله ــ

---

(١) نظم الدرر ٧٤٣/٢.

(٢) ينظر : الترجي في آي من الذكر الحكيم ٣٧ د/ إبراهيم صلاح الهدهد بحث مستل من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد الخامس عشر ١٩٩٧م.

(٣) ينظر : تنوع الأفعال بين الفك والإدغام في الذكر الحكيم ١٨١،١٨٢ د/ إبراهيم صلاح الهدهد ٢٠٠٣ نشر المؤلف .

وتابعه كثير من المفسرين الوجه في جعل خاتمة الآية الأولى بقوله ــ تعالى ــ (لعلكم تعقلون) وخاتمة هذه الآية بقوله ــ تعالى (لعلكم تذكرون) وقد بين أن كلا منهما جاء مناسبا سياقه، فقد ختمت الأولى بما ختمت به؛ لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الخمسة الأولى أمور ظاهرة جلية فوجب تعقلها وفهمها، وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة، لابد فيها من الاجتهاد والتفكر لذا ختمت بغير ما ختمت به الأولى [1] وقد سبق ابن الزبير ــ رحمه الله ــ إلى هذا التأويل حيث طرح سؤالا : للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف في المعلل به في هذه الآيات ؟ والجواب عن ذلك ــ والله أعلم ــ أنه لما كانت الخلل الخمس في الآية الأولى ،وهي الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق خمستها مما يدرك العقل ابتداء قبحها . . . فلما كانت على ما ذكرنا أتبعت بترجي التعقل لأن السلامة منها لاتكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق الله ــ تعالى ــ ولذلك جاءت بأداة الترجي . . . ولما

---

(1) ينظر : مفاتيح الغيب ٦٣٣،٦٣٢/١٢ نظم الدرر ٧٤٣/٢، الفتوحات الإلهية ١١٠/٢ روح المعاني ٢٩٩/٤ .

كانت الخمس التالية لها ، وهي قوله (ولاتقربوا . . .) إلـــى آخرها مما تؤثر فيه الشهوات والأهواء ، وذلك ممـــا يعمـــي ويصم أتبع برجاء التذكر [1]

([1]) ينظر : ملاك التأويل ١ / ٤٨٠،٤٨١ .

٢ــ قال ــ تعالى ــ ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾﴾[الإسراء:٣٥]

الآية في نور السياق

الآية في سورة الإسراء، وهي الخمسون نزولا، وقد نزلت بمكة، وقبل سورة الأنعام، وسياق الحال الذي تنزلت فيه الآية على النحو الذي مضى بيانه في سورة الأنعام، وقد وردت الآيات في حشد من الوصايا المتقاربة مع الوصايا الواردة في سورة الأنعام، والوصايا هنا أكثر منها في الأنعام، ولعل هذا هو السر في اختصاص السورة بالأمر بالوفاء في الكيل، والميزان، وقد جاءت الآية الكريمة في سياق تحقيق مقصود السورة الذي تتظاهر تراكيبها على بيانه، ومقصودها "الإقبال على الله وحده وخلع كل ما سواه " (١) والوفاء بالكيل والميزان، مما يعلي من الامتثال للأمر به مراقبة الله الواحد، والآية الكريمة موضوع البحث جاءت معطوفة علي أشباهها من الوصايا ذاك أن التقدير بالكيل أو الوزن من جملة

---

(١) نظم الدرر ٣٢٧/٤.

الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم وكان الائتمان عليه كالمعهود فيه [1] لذا أتبعه بقوله تعالي وأوفوا الكيل . . .

من عطاء النظم القرآني في الآية الكريمة

الآية الكريمة عبارة عن ثلاث جمل (وأوفوا الكيل إذا كلتم ـ وزنوا بالقسطاس المستقيم ـ ذلك خير وأحسن تأويلا)

التركيب الأول:(وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ)

من أسرار تفصيل ما أوجزته سورة الأنعام

الملحوظ هنا أن الأمر بالإيفاء اختص بالكيل كما أن القسط اختص بالميزان، وفي هذا تفصيل عن الوارد في سورة الأنعام وهذا تناسب مع جريان المعاني في سورة الإسراء؛ لأن الوصايا أكثر تفصيلا منها في سورة الأنعام، فناسب الإيجاز الإيجاز هناك ، لاشتغال سورة الأنعام بإقامة الأدلة على التوحيد، واشتغال السورة هنا بالإقبال على الله وحده، وخلع كل ما سواه ناسبه التفصيل في كل ما يعين على ذلك.

---

(1) السابق ٤/٣٧٩.

من أسرار قيد الفعل بجملة الشرط :

وقد وقع الأمر بالإيفاء مطلقا في الأنعام (وأوفوا الكيل) ووقـــع هنا مقيدا (إذا كلتم) وهذا يعني أن الإيفاء ليس إلزامـــا حـــين يكتال المرء، وإنما هو إلزام حين يكيل؛ لذا قـــال : إذا كلـــتم، ولم يقل: إذا كلتم واكتلتم، وفي هذا القيد شديد إنذار، وترهيب مخيف من التطفيف ،كما أن وراءه شيئا آخر هو أن من يكتال لنفسه ليس بحاجة إلى تنبيه إلى الإيفاء، وإنما الشيطان راصد للبائع لا المشتري، فاشتغل الذكر الحكـــيم بتأكيـــد مـــا يقـــع التطفيف بصدده، قال أبو السعود:" وتقييد الأمر بذلك لمـــا أن التطفيف هناك يكون، وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة إلى الأمر بالتعبيرين"[1] والتوكيد هنا جاء من أمرين من ذكر الأمر بالإيفاء مرتين ، مرة بالذكر (وأوفوا الكيل) وأخـــرى بالحذف : إذا كلتم فأوفوا الكيل ، قال ابن عاشور : " وزيـــادة الظرف في هذه الآية وهو (إذا كلتم) دون ذكر نظيره في آية الأنعام لما في إذ من معنى الشرطية، فتقضي تجدد ما تضمنه الأمر في جميع أزمنة حصول مضمون شـــرط إذا الظرفيـــة الشرطية للتنبيه على عدم التسامح في شئ من نقـــص الكيـــل

(١) إرشاد العقل السليم ١٧١/٥.، روح المعاني ٦٩/٨، ٧٠

عند كل مباشرة له؛ ذلك أن هذا خطاب للمسلمين بخلاف آية الأنعام ؛ فإن مضمونها تعريض بالمشركين في سوء شرائعهم، وكانت هنا أجدر بالمبالغة في التشريع" [1]

التركيب الثاني :(وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ)

أفرد الميزان بالأمر كما أفرد الكيل من قبل؛ تعظيما لخطر ما ينتج من عدم الامتثال للأمر فيهما، وما أحسن قول الفخر الرازي عن علة هذا التشديد، وذلك في قوله : " واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل، والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم ، فوجب على العاقل الاحتراز منه، وإنما عظم الوعيد فيه؛ لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلا لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشارع بالغ من التطفيف والنقصان؛ سعيا في إبقاء الأموال على الملاّك، ومنعا من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير"[2]

وقد أفيدت المبالغة التي استشفها الفخر من تركيب الجملة حيث جاء من مادة الوزن وفيه من الحاجة إلى التحري

---

(1) التحرير والتنوير ١٥/ ٩٨،٩٧.

(2) مفاتيح الغيب ١٩/٨٤.

ما فيه، ثم قيد الفعل بجار ومجرور (بالقسطاس) وهو قريب من معنى الفعل على ما ذكر العلماء في تأويلـــه، وقــد ذكـــر المفسرون للقسطاس معان ، منها : أن القسطاس هو الميـــزان أو هو العدل أو هو في معنى الميزان ، إلا أنه فـــي العـــرف أكبر منه ، ولهذا اشتهر في ألسنة العامة القبّان، وقيـــل: إنـــه بلسان الروم أو السريان، والأصح أنه لغـــة العـــرب، وهـــو مأخوذ من القسط، وهو الذي يحصل فيه الاستقامة والاعتدال، وبالجملة فمعناه المعتدل الذي لايميـــل إلـــى أحـــد الجـــانبين، وقيل : هو مركب من كلمتين : القسط، وهو العدل، وطاس : وهو كفة الميزان لكنه حذف إحدى الطائين لأن التركيب محل تخفيف [(١)] وكلها معان دائرة حول العدل في الميـــزان وآلـــة الوزن ومع هذا التأكيد جاء هذا الوصف (المستقيم) زيادة في التأكيد على عدم التطفيف في الـــوزن، وهـــو مـــا يقتـــضي الاحتياط الشديد والتحري في الميزان؛ لأنه ممـــا يقـــع فيـــه التطفيف أكثر من الكيل، كما أن الميزان هو آلة يتعامل بهـــا

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن (ق س ط) ٤٠٣، جامع البيان ٦١/١٥،تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ٢٥٤ ،الكشاف ٤٤٩/٢ مفاتيح الغيب ٨٥/١٩، الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٨٧٣، ، تفسير القرآن العظيم ٣٩/٣. روح المعاني ٧٠/٨.

أكثر الناس ، وما يشيع استعماله يجب التشديد على الاحتياط فيه.

التركيب الثالث (ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا)

ختمت الآية بهذه الجملة الاستئنافية كأنه قيل : ما نتيجة ذلك فكان الجواب ذلك خير . . . وقد بنيت الجملة على الاسمية؛ دلالة على استمرار ذلك وثبوته، وجاء المسند إليه اسم إشارة للبعيد؛ تعظيما للامتثال لهذين الأمرين، وجاء الخبر نكرة (خير) تعظيما للامتثال وإنفاذ الإيفاء والوزن بالقسط، ثم عطفت أفعل التفضيل على ما قبلها ؛ ترغيبا للباحث عن المكاسب في الدنيا والآخرة بالامتثال وإنفاذ هذه الأوامر" وأنه في الدنيا إذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عوّل الناس عليه ، ومالت القلوب إليه، وحصل له الاستغناء في الزمان القليل، وكم قد رأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالأمانة ، والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم ، وحصلت الأموال الكثيرة لهم في المدة القليلة" (١)

وفي الختم بهذه الجملة خطاب للعقل والقلب: للأول بالتنبيه على ما يترتب على ذلك من مكاسب في الدنيا،

---

(١) مفاتيح الغيب ٨٥/١٩ .

وللثاني (القلب) بما يترتب على ذلك في العاقبة؛ لذا قال الشوكاني: خير: أي: خير لكم عند الله وعند الناس، يتأثر عنه حسن الذكر، وترغيب الناس في معاملة من كان ذلك [1] فقوله (عند الله) خطاب القلب و(عند الناس) خطاب العقل. وقد ألمع البقاعي إلى لطيفة في أفعل التفضيل حيث قال:"وأفعل التفضيل هنا لاستعمال النّصَفَة لإرخاء العنان، أي: على تقدير أن يكون في كل منهما خير، فهذا الذي ذكرناه أزيد خيرا، والعاقل لا ينبغي أن يرضى لنفسه بالدون" [2]

---

(1) فتح القدير ٣/ ٢٢٦،٢٢٧ .

(2) نظم الدرر ٤/ ٣٨٠.

٣ــ قال ــ تعالى ــ ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين: ١-٣]

الآية الكريمة في نور السياق

ورد حديث القرآن عن الكيل والميزان في مطلع السورة الكريمة، ولم يرد لفظ المطففين في غير هذا الموضع من الذكر الحكيم، وسورة المطففين هي آخر السور المكية نزولاعند الجمهور، فهي السادسة والثمانون نزولا، وقيل هي مدنية، وإن شئت فقل نزلت بمكة والمدينة، وقد لاءمت الآيات سياق الحال فقد روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وكان أهلها من أخبث الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل وقيل قدمها ــ عليه الصلاة والسلام ــ وبها رجل يعرف بأبي جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، وقيل: كان أهل المدينة تجارا يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت" [١] وعلى هذا فإن كانت السوة مدنية

---

[١] ينظر : أسباب النزول ٣٣٣ ، إرشاد العقل السليم ١٢٤/٩، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٧٤٠١ .

فالأمر ظاهر، وإن كانت مكية فلعل النبي ﷺ حين قدم المدينة قرأها عليهم [1] وقد استحسن ابن عاشــور أن يكــون نــزول السورة بين مكة والمدينة [2]

وكما لاءمت الآيات سياق الحال لاءمت سياق المقــال، فسورة المطففيين كأنها جاءت تفصيلا لقوله ــ تعالى ــ فــي الانفطـــار(وإن علـــيكم لحـــافظين كرامـــا كـــاتبين) (الانفطار/١٠،١١) أي: أنهم لا يتركون شيئا وإن كان طفيفا، وكأن الآية تتجه بوعيدها نحو المطففين، وللطف هذا الموقــع قال ابن الزبير : " ولما قال ــ سبحانه ــ في سورة الانفطار (وإن عليكم لحافظين كراما كــاتبين) وكــان مقتــضى ذلــك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال، وأنه لايفــوت عمل . . . أتبع الآية المتقدمة بجزاء من عمل عملا يتوهم فيه قرب المرتكب، وهو من أكبر الجرائم، وذلك التطفيــف فــي المكيال والميزان، والانحراف عن إقامة القسط في ذلك، فقال ــ تعالى ــ (ويل للمطففين) [3] وقد لاءمت الآيات مقــصد السورة، بل هي تشكل مطلع السورة الذي يجمــل مقــصودها

(1) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٥/٣٠.

(2) التحرير والتنوير ١٨٨/٣٠ .

(3) البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي ٢٢٤ .

كما بينا في دراسة أخرى [1] ومقصود سورة المطففين " شرح آخر الانفطار بأنه لابد من دينونة العباد يوم التناد بإسكان الأولياء أهل الرشاد دار النعيم والأشقياء أهل الضلال والعناد دار الجحيم، ودل على ذلك بأنه مربيهم والمحسن إليهم بعموم النعمة ، ولا يتخيل عاقل أن أحدا يربي أحدا من غير سؤاله عما حمله إياه وكلفه به واسمها التطفيف أدل ما فيها على ذلك " [2]

ويمكن تقريب ذلك بأن مقصود السورة دينونة العباد على الأعمال دقيقها وجليلها طفيفها وكبيرها ، وترى أن سياق المقال قد تحدر في سورة الانفطار ذكرا للكرام الكاتبين وللفجار والأبرار، وتراه مفصلا في سورة المطففين، وتراه ممتدا في سورة الانشقاق (فأما من أوتي كتابه بيمينه) (الانشقاق ٧:٩) و (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) (الانشقاق ١٠:١٢) وهكذا نرى إبصار الآيات في سياقها

([1]) ينظر : علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم ٣٦٦ وما بعدها دكتوراه لكاتب هذه السطور بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

([2]) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور لبرهان الدين البقاعي ١٦٨/٣ تحقيق د/ محمد عبد السميع حسانين ، وينظر نظم الدرر ٣٥٤/٨ .

المقالي في ترتيب المصحف الشريف يقفنا على الأسباب البيانية الكامنة وراء هذا الترتيب .

من عطاء النظم الكريم

الآيات الكريمات تشكل جملة نحوية واحدة (ويل للمطففين) والآيتان الأخريان صفة للخبر :

مع المسند إليه دلالته وأسراره (ويل)

جاء الويل في الذكر الحكيم لأصناف منها (المكذبين ــ المطففين ــ الهمزة اللمزة) وللويل عند أهل العلم معان، فقد قيل إنه: شدة النكر أو العذاب الأليم، أو واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا أو هو كلمة تذكر عند وقوع البلاء، يقال: ويل لك وويل عليك، أو أنه واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار، أو أنها كلمة يطلب بها العذاب ويدعى بها، وعليه فالجملة إنشائية وتوجيه ذلك مع كونه ــ سبحانه ــ خالق الأفعال كلها أنه طلب من نفسه إلحاق الويل لهم؛ إظهارا لآثار غضبه، أو هي كلمة دعاء بسوء الحال، وهو في القرآن وعيد بالعقاب أو معناها هلاك لهم عظيم ونكال

ينتظرهم [1] وأحسب أن تلك المعاني جميعا ممكنة ، وأجمعها المعنى الأخير ، ويكون تسمية الوادي بها ضمن هذا المعنى ، تسمية له بما يقع فيه من هلاك، وليس في سياق موقـــع هـــذه الكلمة في الذكر الحكيم ما يمنع أيا من هذه المعــاني، فهـــي كلمة مبهمة تعني الهلاك العظيم، ويعني السياق في كل موقـــع بتفسير هذا الهلاك على وجه من الأســـلوب مناســـب للجـــرم المنهي عنه فالسياق في كل موقع هو الذي يفسرها.

الافتتاح بالويل وبراعة الاستهلال

" وافتتاح السورة باسم الويل مؤذن بأنها تشتمل علـــى وعيد فلفظ(ويل) من براعة الاستهلال " [2] وهو كـــذلك فـــي الهمزة أيضا إلا أن الويل هنا يناسب المطففين، والويل هنـــاك يناسب الهمزة اللمزة، وهو ما استقر لدى أهل العلـــم ، يقـــول ابن المنير ــ رحمه الله ــ " وما أحسن مقابلة الهمزة اللمـــزة بالحطمة، فإنه لما وسمه بهذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنهـــا

---

(1) ينظر : جامع البيان للطبري ٥٧١/٣٠ مفاتيح الغيب ٢٦٧/٣١، الجامع لأحكام القرآن ٧٠٤١/١٠، إرشاد العقل السليم ١٢٤/٩، الفتوحات الإلهية ٥٠١/٤، الصاوي على الجلالين ٣٤٩/٤ ، جزء عم للإمام محمد عبده ٣٢، التحرير والتنوير ١٨٩/٣.

(2) التحرير والتنوير ١٨٩/٣٠ .

راسخة فيه، ومتمكنة منه، أتبع المبالغة بوعيده بالنـــار التـــي سماها (بالحطمة) لما يلقى فيها، وسلك فـــي تعيينهـــا صـــيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب حتـــى يحـــصل التعادل بين الذنب والجزاء" [١]

وإنما وقع الويل على التطفيف ؛ تنبيها لخطر ما يظـــن ضئيلا تافها لا قيمة له، وهكذا الشأن في كل ما اشتد خطره ، وصغر عند الناس قدره، ولموقع الويل وفرة في الدلالة، فـــإن قصد به الدعاء فالجملة إنشائية معنى خبرية لفظا، والأســـلوب حينئذ يومئ إلى إحاطة غضب الله بهم، ونسج الأسلوب علـــى طريقة الأمر الواقع، وإنما كان كذلك لما تـــشعر بـــه اســـمية الجملة من استمرارهم على هذا الفعل حتى أصبح وصفا لهم ، وقد وجه العلماء الدعاء من الله علـــى المطففـــين والهمـــازين واللمازين بأنه جاء كذلك؛ إظهارا لآثار غضبه ـــ ســـبحانه ـــ وإنما جاء الأسلوب كذلك لأن العباد كلموا بكلامهـــم ،وجـــاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون كما قال سيبويه [٢]

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٤/٢٨٣،٢٨٤.

(٢) ينظر : الكتاب لسيبويه ١/٣٣١.

مع المسند (للمطففين) وأسراره

المسند من حيث مادته اللغوية دال على غايــة القــبح وحقارة القائم بالتطفيف، وقد ذكروا أن المطفف مــأخوذ مــن الطفيف وهو القليل، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن، وهو الذي لا يوفي الكيــل، قــال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف لأنه لا يكاد يــسرق من المكيال والميزان إلا الشئ الطفيف الخفيف" [١] أرأيت إلى معنى المسند وكيف دل على حقارة فاعله" والتفعيل فيه للتعدية أو للتكثير ولا ينافي كونه من الطفيف بالمعنى المــذكور، لأن كثرة الفعل بكثرة وقوعه وهو بتكراره لا بكثــرة متعلقــه" [٢] والذي أوثره أن معنى المطففين هو ما جاء في الآيتين الثانيــة والثالثة .

تقييد المسند بالوصف وأسراره

قيد المسند بـــ " صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفيــة تطفيفهم الذي استحقوا به الذم والدعاء بالويــل " [٣] أو هـــي

---

(١) ينظر : تفسير غريب القرآن ٥١٩، الجامع لأحكام القرآن ٧٠٤٢/١٠، نظم الدرر ٣٥٥/٨.

(٢) روح المعاني ٢٧٤/١٥.

(٣) إرشاد العقل السليم ١٢٤/٩.

مخصصة بعد تعميم وشارحة مضرة التطفيــف[1] وقــد قــدم (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) علــى مــا بعــده؛ تصويرا لحرصهم على الغنى بالنذر اليسير من المال، وفــي ذلك ما فيه من إظهار خسيستهم، ثــم إن الــشق الأول مــن الوصف يصور حرصهم على الزيادة أما الشق الثاني فيصور حرصهم على الإنقاص ، وقد تعدى الفعل(اكتالوا) بــ (على) وأبصر العلماء وراء ذلك أسرارا، فقد ذكروا أنه وقع كــذلك لبيان أنه اكتيال فيه تحامل على الناس واستيلاء، وهو له أثره في كشف ما يعد في أعين فاعليه طفيفا، كما أن فيه بيانا عــن عظم الجرم بما فيه من ظلم وحمل على المشقة وهذا التوجيه أوقع مما ذكره الفراء من أن (من وعلى) يتعاقبان في هــذا الموضع فإذا جاء بعلى دل على أن ما يأخذونه حق من الناس يستوفونه [2] وهذا مما يتعاند مع الــسياق الجــاري علــى ذم المطففين ، لأن من استوفى حقه لايذم، وكأن القرآن الكريم لو جاء بمن لما دل على التحامل والغبن والإضرار ــ كما قــال

---

(1) ينظر : روح المعاني ٣٠/ ٢٧٤.

(2) ينظر : أنوار التنزيل ٥٤٥/٢ الجامع لأحكام القرآن ٧٠٤١/١٠، الشهاب على البيضاوي ٣٣٥/٨، إرشاد العقل السليم ١٢٤/٩، تفسير جزء عم ٣١، التحرير والتنوير ١٩٠/٣٠،١٩١ .

بعض أهل العلم ــ لأنه في الجانب الثاني(الإيفـــاء) صـــرح بالإخسار والأول (الاســتيفاء) متقابـــل معـــه، فهـــو يـــوحي بالتحامل؛ لأن السياق قاض بذمهم في الطرفين [1]

ويمكن أن يتعلق الجار والمجرور بـــ (اكتالوا) كمـــا مضى، ويمكن أن يتعلق بـــ (يستوفون) كما قـــال جـــار الله " ويجوز أن يتعلق على بـــ (يستوفون) ويقدم المفعـــول علـــى الفعل لإفادة الخصوصية، أي: يستوفون على الناس خاصـــة، فأما أنفسهم فيستوفون لها [2] وعلى هذا فله دلالة تساند ما تدل عليه (على) من التحامل والجور، وقد حـــذف المفعـــول بـــه لتوفير العناية على الفعل والتوجه إليه بالذم، وقد ذكـــر أبـــو السعود أن المفعول به حذف " لأن مساق الكلام لبيـــان ســـوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء، لا فـــي خـــصوصية المـــأخوذ والمعطى" [3]

وقد قيد الفعلان (اكتالوا وكالوا) بـــ(إذا) الدالة علـــى تحقق وقوع مدخولها في الغالب، وفيه مـــن التـــشنيع علـــيهم

([1]) ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٩٤ وما بعدها، د/ محمد الخضري ، ط وهبة

([2]) الكشاف ٤/٢٣٠.

([3]) إرشاد العقل السليم ٩/١٢٥.

وذمهم ما فيه، وفي الوصف الثـــاني (وإذا كـــالوهم . . .) مفارقات دقيقة فإن (كالوهم) تتعدى بنفسها وتتعدى بـــاللام أو أنه حذف الجار وأوصل الفعل سنة أهل الحجــاز، أو أن فـــي الأسلوب مضافا محذوفا، أقيم المــضاف إليــه مقامـــه، أو أن الضميرين في كالوهم ووزنوهم توكيد للضميرين فـــي كـــالوا ووزنوا [(1)] ولحذف الحرف هنا لطيفة حيث " إن اختــصاص هذه الصيغة المجردة من الزيادة في مقابلة (اكتالوا) في جانب الاستيفاء له وقع خاص ذلك أن إنقاص الحروف وتقليلها كأنما يشي بالسرقة وإنقاص الكيل في الوفاء لهم، وأن زيادة المبنى في صيغة الاكتيال وتعديها بحــرف الاســتعلاء ممــا يــشي بالزيادة في استيفاء الكيل منهم قهرا واغتصابا مما تتناغم فيه الألفاظ مع المعاني تناغما لايحدث مثله في نظم غيــر نظــم القرآن، وإلا فهل مصادفة أن تستبدل على بـــ(من) والأولـــى أكثر حروفا، وأدل على الجور والظلم والاستيلاء، ثم يختـــار معها صيغة الزيادة في حروف الفعل لتأتي في المقابل صيغة

([1]) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٦٨/٣٠، الجامع لأحكام القرآن ٧٠٤٣/١٠ ، تفسير ابن كثير ٤٨٣/٤، الشهاب على البيضاوي ٣٣٥/٨.

مجردة من الزيادة ومن التعدية بالحرف الذي مـــن شـــأنه أن يتعدى الفعل به [1]

ومن الناس من يجعل (هم) توكيـــدا لـــواو الجماعـــة، ويجيز الوقف على (كالوا) و (وزنوا) واختار العلمـــاء الأول، وذكروا أن (كالوهم) حرف واحد وهو قول الكسائي وقول أبي عبيد وغيرهما، واحتجوا لذلك من جهتـــين إحـــداهما الخـــطّ، وذلك أنهم كتبوها بغير ألف، ولو كانتـــا مقطـــوعتين لكانتـــا (كالوا) و(وزنوا) بالألف والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتـــك بمعنى كلت لك ووزنت لك، وهو كلام عربي"[2]

ويأتي حذف المفعول جاريا على سياق تأكيـــد ذمهـــم، وفي حذفه توفير للعناية على بيان إخسارهم ، وأن اشـــتغالهم بإخسار الآخرين هو عملهم الذي إليه يقصدون، وفي ذلك من الذم ما فيه،وبذلك يكون الوصفان قد تظاهرت التراكيب فيهما على ذمهم بأنهم يأخذون زائدا ويدفعون ناقصا، وقـــد تحـــدر سياق الكلام في بيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطـــاء، لا

([1]) ينظر : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ٩٥.

([2]) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٧٠٤٣/١٠، نظم الدرر ٣٥٦/٨ .

في خصوصية المأخوذ والمعطي؛ لذا حذف المفعول به من كل .

سر الاقتصار على اكتالوا في صورة الاستيفاء وذكر الكيل في صورة الإخسار

أجاب عن هذا السر الألوسي ــ رحمه الله ــ حيث قال : " ولما كانت العادة الغالبة أخذ الكثير بالكيل ذكر الاكتيال فقط في صورة الاستيفاء، ولما ما يبيعونه مختلفا كثرة وقلة ذكر الكيل والوزن في صورة الإعطاء "[1] وفي هذا إشارة إلى أن التطفيف من عمل تجارهم كما ذكر ابن عاشور [2]

---

(1) روح المعاني ٢٧٦/١٥ .

(2) ينظر : التحرير والتنوير ٣٠/ ١٩٢.

٤ـ قال ـ تعالى ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٧-٩]

الآية الكريمة في نور السياق

وردت الآيات الكريمات في سورة الرحمن، وهي سورة مدنية، فهي السابعة والتسعون نزولا، وهي آخر السور نزولا في الآيات موضوع البحث وقد ذكروا أن الناس في المدينة كان التطفيف في الوزن متفشيا فيهم، وقد لاءمت السورة حال النزول؛ ولذلك رأينا لفظ الميزان تكرر ثلاث مرات في سورة الرحمن ، كما ذكر لفظ الوزن مرة واحدة، وسورة الرحمن تختص بهذا التكرار الذي لانظير له في الذكر الحكيم في سورة أخرى ، ولعل ذلك التكرار يلائم مفتتح السورة، فهي مفتتحة بـ(الرحمن) وإقامة العدل بين الناس إشاعة للرحمة؛ لذا جعل الله وضع الميزان امتنانا على عباده، كما أن ذلك يتناغى أيضا مع مقصودها، وقد ذكر البقاعي أن " مقصودها الدلالة على ما ختمت به سورة القمر من عظيم

الملك وتمام الاقتدار بعموم رحمته وسبقه لغضبه" [1] لذا اختصت السورة بتكرار كلمة (آلاء) بما لا نظير له في الذكر الحكيم؛ تحقيقا لمقصودها بذكر أمهات النعم في الدارين.

يقول الغرناطي " للسائل أن يسأل عن وجه تكرار (لفظ) الميزان ثلاث مرات؟ ووجه تخصيص هذه السورة بذلك؟ والجواب عن ذلك ــ والله أعلم ــ أن المراد بذكر الميزان إعلام العباد بما به قوام أحوالهم واستقامة أديانهم من إجراء أمورهم على العدل الذي أمر به ــ سبحانه ــ . . . وتكررت الآيات والأحاديث معلمة بذلك ليشاهد العباد عظيم العدل واستيفاء جزاء الأعمال مرئيا محسوسا جاريا على مألوفهم في دنياهم مشاهدا للصالح والطالح على المعتقد المتقرر عند كافة أهل السنة فلما كانت الاستقامة في الكيل والوزن مشعرة بالاستقامة فيما سواهما وتأكدا لأنفسهما ولما وراءهما أكد ــ سبحانه ــ الأمر بذلك، وأخبر بوضعه للخلق في القيامة ليمتثلوا بذلك أمره" [2]

---

(1) نظم الدرر ٣٧١/٧.

(2) ملاك التأويل ١٠٥٦/٢، ١٠٥٧.

من عطاء النظم الكريم

التركيب الأول (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ)

النظم الكريم بني على أسلوب الاشتغال، وكأن الكلام رفع السماء رفعها، فأوقع الفعل على المفعول به مرتين وفي ذلك إلماع إلى أن الرفع تكرر مرتين الأولى أنه خلقها مرفوعة، والثانية أنها كانت ملتصقة بالأرض ففتقها كما ذكر في سورة الأنبياء (أولم يـر الـذين كفـروا أن الـسموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شـئ حـي أفلا يؤمنون) (الأنبياء/٣٠) ففي هذا البناء مطابقة للحال وملاءمة للمقام، ولو جاء سواه لما صلح لملاءمة الحال، وذكر البقاعي السر في تقديم السماء فقال: " ولعظمها قدمها على الفعل تنبيها على التفكر فيما فيها من جلالة الصنائع وأنواع البدائع" [1]

وفي الأسلوب إيهام طباق بين (رفع) و(وضع) لأن وضع هنا ليس من الضعة، وإنما بمعنى : جعل ، وكأن المعنى : والسماء رفعها وجعل الميزان ذكره ابن عاشور، وقد ذكر أن الوضع مستعار للجعل فهو كالإنزال في قوله:

---

(١) نظم الدرر ٣٧٥/٧.

(وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) ومنه قول أبي طلحة الأنصاري (وإن أحب أموالي إليّ بئر حاء وإنها صدقة لله فضعها يارسول الله حيث أراك الله، أي: اجعلها وعينها لما يدلك الله عليه" [1] أو أن وضع بمعنى شرع [2] وعلى ذلك في الأسلوب استعارة ، وقد ذكر الأئمة أن الميزان في هذه الآية بمعنى العدل [3] وعليه يكون في الأسلوب استعارة تصريحية [4] .

ورأى الفخر الرازي أن إعادة الميزان بلفظه في قوله (ألا تطغوا) يدل على أن المراد منهما واحد، كما رجح أن المراد بالميزان الآلة التي يوزن بها؛ لذا لم يقل ووضع الوزن؛ لأنه لو جاء كذلك لظن أن النهي مختص بالوزن للغير لا بالاتزان للنفس فذكر بلفظ الآلة التي تشتمل على الأخذ والإعطاء [5] وربما يعرض سؤال هو : أنه إذا ما كان

([1]) التحرير والتنوير ٢٣٨/٢٧.

([2]) ينظر : مفاتيح الغيب ١٥٨/٢٩.، إرشاد العقل السليم ١٧٦/٨،

([3]) ينظر : تفسير غريب القرآن ٤٣٦، الجامع لأحكام القرآن ٦٣٢٤/٩، نظم الدرر ٣٧٦/٧،إرشاد العقل السليم ١٧٦/٨ تفسير الجلالين ٢٥٣/٤، أنوار التنزيل ٤٤٠/٢، فتح القدير ١٣٢/٥

([4]) روح المعاني ١٠١/١٤.

([5]) ينظر : مفاتيح الغيب ١٥٨/٢٩.

المراد بالميزان العدل فلم لم يعبر به؟ والجواب : أن الميـــزان يدل على العدل مجازا، ولا يدل العدل عليه؛ لذا استخدم الذكر الحكيم اللفظ الأوفر دلالة والأخصب معنى والأوجز، والـــذين تأولوا الميزان بالعدل نظروا للسياق اللاحق ، حيث ذكر بعـــد ذلك (وأقيموا الوزن بالقسط . . .) ولا يمنع السياق مـــن أن يراد بالميزان في الموضعين الأولين العدل وفـــي الموضـــع الأخير الآلة التي يعرف بها مقادير الأشياء، فيكون المتأولون للميزان في الأول بالعدل قد جدّوا في الفرار مـــن التكـــرار، والذين ذكروا أن المراد به في كل الآلة التـــي يعـــرف بهـــا مقادير الأشياء قد أبصروا أن في تكرار لفظ الميزان تـــشديدا للتوصية به؛ تقوية للأمر باستعماله والحث عليه كمـــا ذكـــر الزمخشري [١] وأصرح منه قول البقاعي " قد علـــم بتكريـــر الميزان ما أريد من التأكيد في الأمر به لما له من الـــضخامة سواء كان بمعنى واحد أو بمعان مختلفة [٢]

ولابن عاشور بصيرة لطيفة في هذا الموضـــع حيـــث عقب على اختلافات العلماء في تأويل الميزان قائلا: " ولفـــظ

---

(١) الكشاف ٤٤/٤.

(٢) نظم الدرر ٣٧٦/٧.

الميزان يسمح بإرادة المعنيين على طريقة استعمال المشترك في معنييه، وفي لفظ الميزان وما قارنه من فعل(وضع) وفعلي (لاتطغوا) و(أقيموا) وحرف الباء في قوله: بالقسط وحرف (في) من قوله (في الميزان) ولفظ القسط كل هذه تظاهرت على إفادة هذه المعاني، وهذا من إعجاز القرآن" [١]

التركيب الثاني (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

ذكر العلماء وجوها في هذا التركيب، فقد ذكروا أن لام التعليل هنا محذوفة، والتقدير لئلا تطغوا في الميزان وعليه فأن ناصبة ولا نافية، أو أن مفسرة، وعليه يكون وضع الميزان بمعنى شرع ، وشرع فيها معنى القول، وعليه تكون لا ناهية [٢] وقد رد بأن شرط المفسرة تقدم جملة عليها فيها معنى القول، وقد يجاب عنه بتوهم أن وضع الميزان يستدعي كلاما من الأمر بالعدل فيه فجاءت أن مفسرة بهذا الاعتبار [٣] وهذه التأويلات النحوية مما تتعانق بها المعاني ولا تتعاند،

([١]) التحرير والتنوير ٢٣٩/٢٧.

([٢]) ينظر: الكشاف ٤٤/٤، أنوار التنزيل ٤٤٠/٢، إرشاد العقل السليم ١٧٦/٨، فتح القدير ١٣٢/٥ ، ملاك التأويل ١٠٥٧/٢،الجامع لأحكام القرآن ٦٣٢٥/٩، روح المعاني ١٠١/١٤

([٣]) ينظر : الفتوحات الإلهية ٤/ ٢٥٣.

حيث يتأدى بالعبارة الواحدة العديد من المعاني، فعلى التعليل يكون المعنى أنه ــ سبحانه ــ شرع ما شرع لعدم طغيانكم في الميزان، وعلى كونها تفسيرية يكون المعنى أنه ــ سبحانه ــ شرع ما شرع فلا تطغوا، وفي كل ذلك حث على إقامة الميزان والعدل فيه.

سر التعبير بالطغيان

جاء بالفعل (تطغوا) سواء كانت لا ناهية أم نافية؛ تبشيعا لمن يجترئ على الإخسار في الميزان قلة أو كثرة؛ لأن الطغيان هو مجاوزة الحد في الظلم، ويكون في الأسلوب تنبيه بالأعلى على الأدنى؛ تبشيعا لهذا الصنيع ؛ لذا لم يكن النظم : ألا تجوروا في الميزان ، أو ألا تظلموا إلى آخره من الألفاظ التي تقارب هذا اللفظ، وفي إسناد الطغيان إلى واو الجماعة مجابهة للمطففين بتبشيع صنيعهم؛ حملا لهم على الإقلاع عنه .

من أسرار القيد بالمجرور (في الميزان)

وذكر هذا القيد زيادة في التشنيع عليهم ؛ حملا لهم على الترك؛ لأن الميزان آية العدل، وحيثما يتم الطغيان فيه يفسد كل شئ؛ لذا قال ابن عاشور و(في) من قوله (في

الميزان) ظرفية مجازية تفيد النهي عن أقل طغيان على الميزان،أي: ليس النهي عن إضاعة الميزان كله، بل النهي عن كل طغيان يتعلق به على نحو الظرفية قوله ــ تعالى ــ (وارزقوهم فيها واكسوهم) أي: ارزقوهم من بعضها"[١]

التركيبان : الثالث والرابع (وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ)

إشكال العطف بالواو

جاء هذا التركيب بالواو، وعلى عد (لا) في الجملة السابقة ناهية لا إشكال في عطف هذه عليها بالواو والإشكال وارد على عدها نافية، فتكون الواو حينئذ قد عطفت إنشاء على خبر، وقد دفع العلماء هذا الإشكال بتأويل الجملة هنا بالمفرد، وتأويلها بالمفرد جردها عن معنى الطلب [٢] وقد دفع ابن عاشور هذا الإشكال بطريق آخر فقد عد جملة (وأقيموا) معطوفة على (ألا تطغوا) إذا عددنا (أن) تفسيرية و(لا) ناهية

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٣٩.

(٢) روح المعاني ١٤/١٠٢.

، وعلى جملة (ووضع الميزان) على احتمال كون المعطـــوف عليها تعليلا [1]

سر الأمر بإقامة الوزن

قد جاء الأمر (أقيموا) ولم يأت : زنوا؛ لما في لفـــظ الإقامة من إثارة الحرص والاهتمام عند الميزان، وذلـــك لمـــا تحتاجه الإقامة من دقة الملاحظة، وتوفر العناية وفي ذلك من الترهيب من الإخلال بالوزن ما فيه، وقد قيد الفعـــل بالجـــار والمجرور (بالقسط) زيادة في التأكيد وتشديدا في الوعيد لمـــن لم يقم للوزن حقه، وكأن الأمر بإقامة الوزن بالقسط بعد النهي عن الطغيان فيه كافيا في الكشف عن خطر أمر الميزان، غير أن الحديث عن الميزان ختم بتركيب آخر له أسرار ودقائق.

من أسرار النهي عن الإخسار في الميزان

---

(1) ينظر التحرير والتنوير ٢٣٩/٢٧. لعطف الإنشاء على الخبر مسالك في الذكر الحكيم منها ١ــ تأويل إحدى الجملتين بمعنى الأخرى تأويلا يكشف عن ملامح التناسب ٢ــ تقدير معطوف عليه مناسب للمعطوف في نوعه ودلالته ٣ــ صرف مناط العطف عما فيه اختلاف إلى ما فيه تناسب نوعي وإن طال الفاصل مادام الفاصل ذا قربى ٤ــ صرف مناط العطف من الجمل التي هي محل الوصف بالخبرية والإنشائية إلى الأغراض والمقاصد ٥ــ تأويل معنى العاطف وصرفه إلى معنى آخر غير معنى العطف) ينظر / مسالك العطف بين الإنشاء والخبر ٤٩ د/ محمود توفيق ، ط الأمانة ١٩٩٣م .

أبصر الفخر ــ رحمه الله ــ لطيفة وراء ما أثـاره تتابع التراكيب ، حيث قال : " ولا تخسروا الميزان : أي: لاتنقصوا الموزون والميزان ذكره الله ــ تعالى ــ ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة (ووضع الميزان) والثاني بمعنى المصدر (ألا تطغوا في الميزان) أي: الوزن ، والثالث :للمفعول (ولاتخسروا الميزان) أي: الموزون، وقد جعل ذكر الميزان نظير ذكر القرآن من حيث ذكره الله بمعنى المصدر، وبمعنى المفعول، وبمعنى الكتاب وبمعنى الآلة [١] وهذا هو الأعلى من الذهاب إلى أن سر ذكره هو العناية برؤوس الآي [٢] فليس السجع طريقا يسعى الذكر الحكيم بتراكيبه إليه .

وما أوقع كلمة الغرناطي " وكرر لفظ الميزان جريا على عادة العرب فيما لها به اعتناء وتهميم . . . وهذا موجود في كلامهم كثيرا إذا قصدوا الاهتمام والاعتناء والتهويل والاستعظام [٣] وقد أبصر البقاعي لطيفة أخرى في

([١]) ينظر : مفاتيح الغيب ١٦٠/٢٩.

([٢]) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٦٣٢٥/٩.

([٣]) ملاك التأويل ١٠٥٨/٢.

هذا التتابع،وهي أنه" لما كان المراد العدل العظيم بينه بالتأكيد بعد الأمر بالنهي عن الضد" (١)

التعبير بالميزان بدل الموزون وسره :

وفي ذكر لفظ الميـــزان وضـــع للمظهـــر موضـــع المضمر؛تنبيها إلى خطره، وقد أكد الذكر الحكيم علـــى عـــدم الإخسار في الميزان، وذلك بتسليط الفعل على الميزان ،وكان الأصل أن يقال : ولا تخسروا في الميزان فلما حذف الجـــار وأوصل الفعل دل ذلك على تبشيع أي إخسار يقع في الميزان، وكشف أن أي إخسار ولو كان طفيفا فإنه إخسار للميزان كله، وفي ذلك إثارة لشدة الحرص على العدل في الميـــزان، وقـــد تأول العلماء الميزان في هذا التركيـــب بـــالموزون لمـــا رأوا تسليط العامل على الميزان، والسر البلاغي وراء ذلك هو مـــا ذكرناه من المبالغة في النهي عن الإخسار في الموزون.

(١) نظم الدرر ٣٧٦/٧.

٥ـ ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد: ٢٥]

الآية الكريمة في نور السياق

وردت الآية الكريمة في سورة الحديد، وهي سورة مدنية فهي الرابعة والتسعون نزولا، وذلك حين استواء عود الإسلام، وقوة ظهر المسلمين، وفي تراكيب الآية الكريمة ما يلائم الحال حين النزول، وكل حال يشبهه عبر الزمان، وحديث السورة عن الميزان جاء في السورة قبل الأخيرة حسب ترتيب النزول، فقد نزلت قبيل سورة الرحمن، وسورة الرحمن آخر السور نزولا في السور التي تضمنت حديث القرآن عن الميزان، وتنزيلها حينئذ تنبيه للمسلمين إلى الحفاظ على عمود القوة والسلطان (الكتاب ــ الميزان ــ الحديد) وكانوا حينئذ قد غزوا غزوات وانتصروا انتصارات فخاطبهم الذكر الحكيم بما يطيل لهم أمد الانتصار، ويديم لهم العلو في الأرض.

وكما لاءمت الآية الكريمة سياق الحال واءمت سياق المقال أيضا شأن النظم الكريم كله، فقد جاءت عقب شرح مآل الدنيا وبيان حقيقتها، وذم من تحمله الدنيا على الاختيال والفخر والبخل جاءت الآية بعد كل ذلك؛ لتبين أن كل شئ في الحياة من عند الله؛ مجابهة للمختال الفخور والبخيل؛ وإثناء لهم عن خلائقهم تلك التي حملتهم عليها الدنيا.

من عطاء النظم الكريم : الآية الكريمة مكونة من خمس تراكيب ، نتناولها ــ بحول الله ــ بالتحليل.

التركيب الأول (لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)

وقع هذا التركيب استئنافا ابتدائيا ناشئا عما تقدم من التحريض على الإنفاق في سبيل الله، وعن ذكر الفتح، وعن تذييل بقوله (ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) (١)

افتتاح الاستئناف بلام القسم وأسراره

افتتاح هذا الاستئناف بلام القسم وحرف التحقيق إيذان بخطر مضمونه، وأهمية مدخول اللام وقد، وفي القسم مزيد اعتناء بمدخوله، وجاء المسند بالفعل أرسل؛ دلالة على خطر مضمون الرسالة؛ لأنه لا يرسل إلا في الأمور المهمة وكما أفاد مجيئ المسند إليه (نا) التعظيم؛ تنبيها على عظم مضمون الرسالة، وجاء متعلق الفعل (رسلنا) بالجمع لبيان أن مضمون الرسالات مضمون واحد لأنها من الله الواحد، وفيه من خطر الرسالة وتأكيد رسالة محمد ﷺ ما فيه لأنه لاتتعاقب الرسل من مُرسل واحد إلا لخطر عظيم، وقيد المسند بالجار والمجرور (بالبينات) إيجازا واختصارا، حيث

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٤١٥/٢٨.

حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامـــه والأصـــل بالآيـــات البينات، لكنّ في ذكر الصفة دون الموصوف توفيرا للعنايـــة على الصفة؛ ومبالغة في قوة ظهور الآيات .

التركيـــب الثـــاني (وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ)

دقائق في معنى المعية :

جاء التركيب الثاني في رحم التركيب الأول، وكـــان الأول مهادا وتوطئة له، هيأت القلـــوب لـــسماعه، والأفئـــدة للإنصات لما سيلقى بعده؛ لأنه إذا ما افتتح الكلام ببيان أهمية المضمون وعظم المذكور،فإن ما يلقى بعده يكون في ســـياق تلك الأهمية والعناية، ونلحظ في هـــذا التركيـــب أنـــه قـــدم المجرور على المفعول به **(معهم)** وهو تعبير بديع يوحي بأن الرسل منزلون من السماء بمصاحبة الكتب المنزلـــة معهـــم، وفي ذلك تعظيم لهم، وحمل للمخاطبين على الانـــصياع لمـــا نزلوا مصاحبين له (الكتاب) لذا تأول العلماء قولـــه **(معهـــم)** بأنه مجاز مرسل باعتبار ما سيكون،حيث قـــالوا : " وأنزلنـــا الكتاب حال كونه آيلا وصائرا لأن يكون معهـــم إذا وصـــل

إليهم في الأرض [1] وفي المجاز مبالغة يــراد منهــا تعظــيم مهابة الرسل وما أرسلوا به، وتأول آخــرون (مــع) بمعنــى (إلى) وعلي ذلك يكون في الأسلوب استعارة في الحرف.

تعريف الكتاب باللام وأســراره ــ الميــزان بــين الحقيقــة والمجاز.

وقد ذكر العلماء أن اللام في الكتاب للجنس [2] نظرا لتعدد الكتب، غير أنه عبر بالواحد مكان الجمع إلماعا إلى أن الرسالات وإن تعددت، والكتب وإن تنوعت فالمقــصد منهــا واحد ، ثم جاء ذكر الميزان في هذا السياق دلالة على جــلال أجره، وعظيم شأنه ، والنص على إنزال الميزان من الــسماء مع الكتب والرسل فيه لفت لأهميته في إقامة شــؤون الحيــاة ،وقد أجرى العلماء الميزان هنا علــى العــدل علــى ســبيل الاستعارة، وينصره أن الميزان من مصنوعات البشر والأولى

---

(1) الفتوحات الإلهية ٤/٢٩٤.

(2)ينظر : التحرير والتنوير ٢٧/٤١٦، أنوار التنزيل ٢/٤٥٦، إرشاد العقل السليم ٨/٢١١، روح المعاني ١٤/١٨٨ .

إجراؤه على الحقيقة كما ذهب السلف وينـــصر ذلـــك تقييـــده بالجار والمجرور (بالقسط) [1]

الإنزال بين الحقيقة والمجاز:

وقد اختلف العلماء في الإنزال هنا أحقيقـــة هـــو أم مجاز؟ والجمهور على أنه مجاز عن التبليغ، أو أنه مجاز عن إنزال أسبابه أو إرشاد الناس إليه [2] وقد ذكر بعض أهل العلم أن إنزال الميزان والكتاب حقيقة، ولا يمنعـــه الـــسياق وفـــي التركيب اللاحق لهذا التركيب (وأنزلنا الحديد) ذكر العلماء أن الإنزال مجاز عن إلهام الصنعة أو مجاز عن خلقنا، وقدرنا أو مجاز عن إنزال الأمر به أو مجاز عن أحدثناه وأنشأناه [3] ثم أثبت العلم الحديث أن إنزال الحديد كان من الـــسماء حقيقـــة،

([1]) ينظر : جامع البيان ١٣٧/٢٧، الجامع لأحكام القرآن ٦٤٣٠/٩،أنوار التنزيل ٤٥٦/٢، نظم الدرر ٤٥٨/٧.

([2])ينظر : مفاتيح الغيب ٤٠٧/٣٠، فتح القدير ١٧٧/٥، الفتوحات الإلهية ٢٩٥/٤٠، حاشية زادة على البيضاوي ٤٥٦/٤، روح المعاني ١٨٨/١٤، التحرير والتنوير ٤١٦/٢٧.

([3])ينظر : مفاتيح الغيب ٤٠٧/٣٠، نظم الدرر ٤٥٩/٧ فتح القدير ١٧٧/٥، التحرير والتنوير ٤١٦/٢٧.

وقد صار هذا بمثابة الحقائق العلمية، هذا وليس في السياق ولا منطق العقل ما يمنع من إجراء الكلام على الحقيقة.

تقييد الإرسال والإنزال بلام التعليل ودقائقه

وقد عقد التركيب هذا الإنزال بعلة (ليقوم الناس بالقسط) لبيان خطر الميزان حيث جعلت العبارة علة لإرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان وقد كشف هذا التقييد عن خطر أمر الميزان في إقامة حياة الناس، وأنه لا قيام لهم إلا بالميزان، ألا تراه أسند الفعل (يقوم) إلى الناس فبالقسط تستقيم الحياة ،وبإقامة الوزن تستقيم شؤون الناس؛ لذا ذكروا أن القيام مجاز في صلاح الأحوال واستقامتها ؛لأنه سبب لتيسير العمل [١] وقد استظهر بعضهم أن يكون قوله: (ليقوم الناس بالقسط) علة لإنزال الميزان فقط [٢] والباء في (بالقسط) للملابسة أي: يكون أمر الناس ملابسا للعدل ومماشيا للحق [٣]

([١]) ينظر : التحرير والتنوير ٢٧/ ٤١٦ .

([٢]) ينظر : روح المعاني ١٤/ ١٨٩.

([٣]) التحرير والتنوير ٢٧/٤١٦.

التركيب الثالث (وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ)

المشهور عند أهل العلم كما أسلفنا أن الإنزال هنا مجاز عن الإلهام على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية، والحق أن العلم الحديث أثبت بما لايدع مجالا للشك أن الإنزال على سبيل الحقيقة ، فالأولى إجراء اللفظ على الحقيقة، تغليبا للأصل على الفرع، وقد ذهب الإمام الطبري إلى أن الإنزال حقيقة واحتج لذلك بما روي عن ابن عباس — رضي الله عنه — أنه قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم — صلوات الله عليه — السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة [١] وروي أن جبريل — عليه السلام — نزل بالميزان فدفعه إلى نوح — عليه السلام — وقال: مر قومك يزنوا به [٢] وقد قيد المفعول به بجملة (فيه بأس شديد ومنافع للناس) وقعت حالا

(١) ينظر: جامع البيان ١٣٧/٢٧، الجامع لأحكام القرآن ٦٤٣/٩.(السندان : هو وزان سعدان :زبرة الحديد الكلبتان :أداة يأخذ بها الحداد الحديد المحمي ، الميقعة :خشبة القصار يدق عليها، المطرقة : آلة من حديد ونحوه يطرق بها الحديد ونحوه من المعادن) ينظر المصباح (س ن د ، الوسيط ٠ ط ر ق — و ق ع — ك ل ب)

(٢) ينظر: الكشاف ٦٦/٤، إرشاد العقل السليم ٢١١/٨.

له؛ كشفا عن مضاره، ومنافعه، وقدم ذكر الضر علـــى ذكـــر النفع ؛ تقديما لما هو الأولى بالاحتيـــاط والـــدفع؛ لأن النفـــع لايحتاج إلى كثير حث، أما الضر فتشتد الحاجة إلـــى التنبيـــه إليه وبيان خطره؛ حملا لفاعله على الإقلاع عنه، فقدم الأولى بالبيان.

التركيب الرابع (وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ)

هذا القول معطوف على قوله (ليقوم النـــاس) كأنـــه قيل : ليستعملوه وليعلم الله . . . والأول أولى، وقد رجح أبـــو السعود أن يكون معطوفا على محذوف يدل عليه مـــا قـــبلهن فإنه حال متضمنة للتعليل، كأنه قيل: ليـــستعملوه، ولـــيعلم الله علما يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال الـــسيوف والرماح وسائر الأسلحة، أو متعلق بمحذوف مـــؤخر والـــواو اعتراضية، أي: وليعلم الله من ينصره ورسله أنزله [1] وفـــي الأسلوب هنا استعارة حيث أطلق فعل(لـــيعلم) علـــى معنـــى ظهور أثر العلم [2] أي: ليظهر الله للناس الحقيق بنصره، وقد قيد الفاعل بالحال(بالغيب) إذ هو في محل نصب مـــن فاعـــل

---

(1) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢١١/٨، وروح المعاني ١٨٨/١٤ .

(2) ينظر: التحرير والتنوير ٤١٨/٢٧.

ينصره أو من مفعوله، والتقدير:غائبا عنهم أوغائبين [١] وفي التقييد بهذا الحال ترهيب وتخويف ببيان أن الله مطلــع علــيم بمن يخلص لدينه وينصره .

التركيب الخامس (إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ)

وقعت هذه الجملة تعليلا للتركيب الأول وما تناســل منه، وفي ختم الآية بالقوة والعزة إشارة إلى نصر الله رســله ومن نهجوا نهجهم في إيفاء الكتاب حقه، والميزان قسطه، وقد ذكر أبو السعود أنه " اعتراض تذييلي جيئ به تحقيقا للحــق؛ وتنبيها على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته في إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرتهم، بــل إنمــا هــو لينتفعوا به، ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب، وإلا فهــو غني بقدرته وعزته عنهم في كل ما يريده" [٢]

(١) ينظر : فتح القدير ١٧٨/٥.

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢١١/٨.

٦ـ قال تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشورى: ١٧]

الآية الكريمة في نور السياق

وردت الآية الكريمة في سورة الشورى، وهي مكية فهي الثانية والستون نزولا،وهذه الفترة من فترات الدعوة كانت متجهة إلى إثبات الوحدانية، وإثبات أن الكتاب حق، وأنه من عند الله، وقد جاءت الآية الكريمة في سياق تحقيق مقصود سورة الشورى، وهو "الاجتماع على الدين الذي أساسه الإيمان، وأم دعائمه الصلاة،وروح أمره الألفة بالمشاورة المقتضية لكون أهل الدين كلهم في سواء كما أنهم في العبودية لشارعه سواء،وأعظم نافع في ذلك الإنفاق والمؤاساة فيما في اليد، والعفو والصفح عن المسيئ والإذعان للحق في الخضوع للآمر الحق،وإن صعب وشق وذلك كله الداعي إليه هذا الكتاب الذي هو روح جسد هذا الدين" [١]

والآية الكريمة ناظرة إلى قوله ــ تعالى ــ (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما

([١]) نظم الدرر ٦/٥٩٣.

وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . .) (الشورى/ ١٣) أي: أن هذا الكتاب شأنه شأن الكتب السابقة غير أنه نزل مهيمنا عليها، واتفاق هذا الكتاب مع الكتب المنزلة في المقصد العام آية على أنه من الله الواحد، والتعبير بالميزان جاء هنا ناظرا إلى قوله (أن أقيموا الدين) وإقامة الوزن إقامة للدين كما جاء التعبير بالميزان ناظرا إلى قوله ــ تعالى ــ (وأمرت لأعدل بينكم) (الشورى/١٥)

من عطاء النظم الكريم :التركيب الأول:(ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ)

موقع الجملة من سابقتها

أبصر ابن عاشور أن موقع الجملة من قوله ــ تعالى ــ (والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له . ..) (الشورى/١٦) موقع الدليل، والدليل من ضروب البيان؛ ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها لشدة اتصال معناها بمعنى الأخرى" (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٦٧.

التعبير باسم الجلالة مسندا إليه وأسراره، والمسند موصولا وأسراره:

جاء المسند إليه مقــدما مــذكورا معرفــا بــأعرف المعارف (لفظ الجلالة) إدخالا للهيبة على القلوب مما يذكره، إذ هو أهيب أسماء الله ــ عز وعلا ــ وقد جاء المسند معرفا بالاسم الموصول لما في الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر المذكور بعد، وجاء التعبير في جملة الصلة بـــ (أنزل) بدل نزّل للإشارة إلى أن المراد جملة الكتاب، فقد ذكـــروا أن أنزل يعني التنزيل إجمالا، ونزّل يعني التنزيل تنجيما بحسب الوقائع.

القيد بالمجرور وأسراره :

قيد الإنزال بالمجرور (بالحق) تأكيدا على إثبات أنه من عند الله ، وأنه أنزل متلبسا بالحق، وأن الحق محيط بـــه، ذاك أن الباء للملابسة كما ذكروا [١]

عطف الميزان على الكتاب وأسراره :

جاء عطف الميزان على الكتاب في هـــذا الـــسياق؛ إلماعا إلى خطره، وعظيم أمره،وبيان أن " مـــن نـــزع إلـــى

---

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٢٥.

الكتاب في المعاني وإلى الميزان في الأعيان فبنى أمره على تحقق العدل فيهما بهما فاز، وإن أهمل ذلك خاب فدحضت حجته وسقطت عند ربه منزلته " [1] وذلك المعنى كائن سواء أريد بالميزان الآلة، أو أريد به العدل مجازا على سبيل الاستعارة كما مضى بيانه في موطن آخر، والذين قالوا بأن الميزان مستعار للعدل والعهد أو الشرع عدوا قوله: (أنزل) حقيقة في آلة الوزن ، ويستعار للشرع؛ تشبيها له بالميزان العرفي من حيث إنه توزن به الحقوق الواجبة الأداء . . . ويطلق على العدل والتسوية؛ تسمية للشئ باسم آلته؛فإن الميزان آلة العدل [2]

([1]) نظم الدرر ٦١٧/٦.

([2]) ينظر : جامع البيان ١٣/٢٤، الجامع لأحكام القرآن ٥٨٣٥/٩، أنوار التنزيل ٣٥٥/٢، فتح القدير ٥٣١/٤، الفتوحات الإلهية ٥٨/٤، حاشية زادة ٢٧٤/٤، تفسير الجلالين ٣٥٥/٢ ، روح المعاني ٢٦/١٣، التحرير والتنوير ٦٨/٢٥

التركيب الثاني: (وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧)

جاء التركيب الثاني معطوفا على التركيب الأول عند ابن عاشور [١] والأعلى أنها معطوفة على مقدر؛ ذاك أن هذه الجملة إنشائية، والتركيب الأول خبري، واختلافهما مؤذن برفع العاطف، ولعل التقدير : فاتبع الكتاب واعدل في الميزان، ومايدريك لعل الساعة قريب، ويكون الخطاب لغير معين، وقد أشار الزمخشري ــ رحمه الله ــ إلى وجه ذكر الساعة بعد الكتاب حيث قال : " فإن قلت : كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت : لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط ،فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه" [٢] والاستفهام للتهويل على حده في قوله ــ تعالى ــ (القارعة ما القارعة) (القارعة/١،٢) (الحاقة ما الحاقة) (الحاقة/١،٢) وفي ذلك من تهويل أمر الساعة ما فيه،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٦٨.

(٢) الكشاف ٣/٤٦٥.، وينظر إرشاد العقل السليم ٧/٢٧.

ويمكن أن يكـــون الاســـتفهام إنكاريا،والتقـــدير:أي: لاســـبب يوصلك للعلم بقربها إلا الوحي [١]

التعبير بلعل وأسراره

لعل هنا ليست دالة على توقع المتكلم بحال، ولكنهـــا خرجت من توقع المتكلم إلى توقع المخاطب؛ إحداثا للشك فيه [٢] وهذا هو الأعلى ــ فيما أبصر ــ وقد ذكر ابـــن عاشـــور في آية الأحزاب في لعل أن في الكلام حذفا،والتقدير:أي شئ يدريك لعل الساعة بعيدة أو قريبة، لعلها تكون قريبا، ولعلهـــا تكون بعيدا، ففي الكلام احتباك [٣] فقد وقع التعبير بلعل هنـــا موقظا لأهل الغفلة، ومنبها لهم، فهي مبهمـــة عـــنهم، وفـــي إبهامها حكمة ربانية في دوام الاستعداد لها، فلا بد أن يعـــيش الكل في توقع من مجيئها، فهي مع" كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجيئ" [٤] لذا قالوا: الخطاب لغير معين، وقد اختلف العلماء حول تذكير(قريب) حيث إن الأصل أن يقال: قريبة، وقد قدر جمهور العلماء محذوفا مـــذكرا، وبينـــوا أن أصـــل

---

(١) ينظر : الفتوحات الإلهية ٥٨/٤.

(٢) ينظر : الترجي في آي من الذكر الحكيم ٤٤،٥٤ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١١٣/٢٢.

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ١١٢/٧، نظم الدرر ١٣٨/٦ .

الكلام لعل مجيئها قريب، أو إتيانها [1] غير أنهم لم يـــذكروا لطيفة لذلك، وقد أشار البقاعي إلى أن سر ذلك هو التهويـــل، وبيان أن شدائدها ذكور الشدائد [2] أو أن ذلـــك علـــى غلبـــة التذكير على لفظي بعيد وقريب،أو أنه مما يتحد فيه المـــذكر والمؤنث.

([1]) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٥٨٣٥/٩، أنوار التنزيل ٣٥٦/٢، فتح القدير ٥٣١/٤، إرشاد العقل السليم ٢٧/٧، الفتوحات الإلهية ٥٨/٤، حاشية زادة ٢٧٤/٤، روح المعاني ٢٧/١٣، التحرير والتنوير ٢٥/ ٦٩.

([2]) ينظر: نظم الدرر ٦١٧/٦.

٧ــ قال ــ تعالى ــ ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩]

الآية الكريمة في نور السياق

الآية الكريمة وردت في سورة الحجر، وهي مكية النزول، فهي الرابعة والخمسون نزولا، وقد نزلت بين سورتين تحدثتا عن الكيل، والميزان ، فقد نزلت بعد سورة يوسف وهي الثالثة والخمسون نزولا، وقبل الأنعام وهي الخامسة والخمسون نزولا، وسياق النزول هذا مما يكشف عن خطر الميزان، وعظيم شأنه، وأنه لايقل خطرا عن أمر العقائد، من توحيد وبعث وغيره.

وقد جاءت الآية الكريمة في سياق تحقيق مقصود سورة الحجر،ومقصودها:"وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الموضحة للحق من غير اختلاف أصلا" (١) وقد جاء تركيب الآية الكريمة ملائما هذا المقصود إذ التقدير في الخلق من ذروة المعاني الموضحة للحق، ولقد جاءت الآية الكريمة في سياق الامتنان، ومناسبتها لما مضى مناسبة

---

(١) نظم الدرر ٤/١٩٩

الشئ لقيده، فقد ذكر الامتنان ببروج السماء (وحفظناها مـن كل شيطان رجيم) (الحجر/ ١٧) ثم ذكـر الامتنـان بخلـق الأرض، ثم ثلّث بالرياح، وقد كشف الفخر ــ رحمـه الله ــ عن وجه مناسبة الآية لما قبلها فقال: " اعلم أنه ــ تعـالى ــ لما شرح الدلائل السماوية في تقرير التوحيـد أتبعهـا بـذكر الدلائل الأرضية" [١] وهو كلام كاشف عن ارتباط ذكر الـنعم بإثبات التوحيد ، وهو ما يلائم حال النـزول بمكـة، وبـذلك يتناغم سياق المقال مع سياق الحال.

من عطاء النظم الكريم

الآية الكريمة عبارة عن ثلاثة تراكيـب متعاطفـة، والآية بجملتها معطوفة على قوله ــ تعالى ــ (ولقـد جعلنـا في السماء بروجا . . .) (الحجر/١٧)

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٠٢/١٨.

التركيب الأول:

(وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا)

قدم المفعول به على الفعل من باب الاشتغال ، وفيه يسلط الفعل على المفعول مرتين، وفي ذلك زيادة اعتناء بالمقدم ، وجاء المسند دالا على عظيم الامتنان ووافر الإنعام، وذلك لما في المد من السعة التي تلائم السير والزرع، وقد ذكروا أنه لم يقرأ بغير الاشتغال في الآية ، قالوا : لأنه أرجح من حيث العطف على جملة فعلية قبلها (ولقد جعلنا في السماء بروجا . . .)" [1]

التركيب الثاني:

(وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ)

عبر بالإلقاء هنا تصويرا لعظم النعمة؛ لأن الإلقاء يصور الأرض هائجة مائجة، وبإلقاء الجبال عليها كان الرسوّ والاستقرار، وقد حذف الموصوف إيجازا، واختصارا، والأصل جبالا رواسي، وفي حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه توفير للعناية على الصفة، إذ بها يتعلق الامتنان، وقدم

---

(1) ينظر الفتوحات الإلهية ٢/٥٤١.

المجرور (فيها) على المفعــول بـــه لبيـــان أن الأرض هـــي المقصود بالتهيئة والإعداد لراحة البشر، والانتفاع بها.

التركيب الثالث:

(وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ مَّوۡزُونٍ)

أسند الفعل (أنبتنا) إلى نون العظمة؛ تعظيما للنعمـــة، وإجلالا للمنة، وقد ذكروا أن (من) يمكن أن تكون تبعيــضية، ويمكن أن تكون مزيدة عند الكوفيين والأخفش [1] والألـــصق بالسياق أن تكون مزيدة والأبر عند أهل العلم تسميتها صـــلة، وفيها توكيد على كثرة النعم، وقد ذكر العلمـــاء أن مـــوزون معناه معلوم ، أو بقدر مقدر وبحد معلوم وقد رجح الطبـــري وغيره ما مضى [2] وعليه يكون موزون اســتعارة للمقــدر

([1]) ينظر : الفتوحات الإلهية ٥٤٢/٢، روح المعاني ٧،٢٧٥.

([2]) ينظر : جامع البيان ١٢/١٤، الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢٩/٦، مفاتيح الغيب ٤٠٤/١٨، أنوار التنزيل ٥٣٩/١.

المعلوم ، ويكون استخدام الوزن هنا مجازا لا حقيقة، وبه قال كثير من العلماء [١]

وذكر آخرون أن موزون هنا معناها الأشـياء التـي توزن من الذهب والفضة، وذلك على أن الضمير في (منهـا) يعود على الجبال،أي: وأنبتنا في الجبال، وذكـر آخـرون أن المعنى الأشياء التي توزن [٢] لذا ذكر الفخر ــ رحمـه الله ــ أن الضمير يحتمل أن يكون راجعا إلى الأرض، وأن يكـون راجعا إلى الجبال الرواسي إلا أن رجوعه إلى الأرض أولـى [٣]

وقد أوجز الفخر كلام السابقين حيث قال : وبالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب [٤] وعليه

---

(١) ينظر : الكشاف ٣٨٩/٢ ، فتح القدير ١٢٦/٣، إرشاد العقل السليم ٧١/٥، تفسير ابن كثير ٥٤٨/٢،الفتوحات الإلهية ٥٤٢/٢، روح المعاني ٢٧٤/٧، التحرير والتنوير ٣٥/١٤.

(٢) ينظر : جامع البيان ١٣،١٢/١٤ الكشاف ٣٨٩/٢، الجامع لأحكام القرآن ٣٦٢٩/٩، نظم الدرر ٢١٣/٤، إرشاد العقل السليم ٧١/٥، حاشية زادة على البيضاوي ١٥٠/٣، تفسير ابن كثير ٥٤٨/٢.

(٣)ينظر : مفاتيح الغيب ٤٠٥/١٨

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب ٤٠٥/١٨

ففي الميزان الحسن كله، والذي أبصره أن هذه المعاني جميعا تتعانق ولا تتعاند، وأن السياق الذي غرست فيه الكلمة يجعلها تحتمل كل هذه التأويلات، وهو مما يغزر به المعنى .

الفصل الثاني

بلاغة النظم القرآني في آيات الكيل والميزان

في قصص السابقين

لم يتحدث القرآن الكريم عن الكيل والميزان في قصص السابقين إلا في قصة شعيب ــ عليه السلام ــ وقصة يوسف ــ عليه السلام .

أولا : بلاغة النظم القرآني في آيات الكيل والميزان في قصة شعيب ــ عليه السلام .

توطئة

تحدث الذكر الحكيم عن الكيل والميزان في قصة شعيب ــ عليه السلام ــ في ثلاث سور من الذكر الحكيم (الأعراف ــ هود ــ الشعراء) والظاهر أن تطفيف الكيل وإخسار الميزان كانا شائعين في قومه؛ لذا دعا قومه إلى الوفاء بالكيل والميزان وعدم التطفيف والإخسار عقب دعوتهم إلى التوحيد، وقد تناسبت الآيات في السور الثلاثة مع حال النزول، فقد نزلت السور كلها في مكة، وكأن الذكر الحكيم كان يصطفي في التنزيل من قصص السابقين ما يلائم حال كفار مكة ومن شابههم ؛إرهابا لهم؛ وحملا على الإقلاع عما

هم فيه من التطفيف والإخسار، والسور الثلاث تقاربت نزولا، فالأعراف هي التاسعة والثلاثون نزولا، والشعراء هي السابعة والأربعون نزولا، هود هي الثانية والخمسون نزولا، وفي تتابع التنزيل وتتابع ذكر عاقبة من لم يف بالكيل ولم يقم الميزان تأكيد على خطر أمر الكيل والميزان في كل الأمم، وأن الإخسار والتطفيف مما يجلب غضب الله على العباد، ويؤذن بهلاكهم

١ـ قال ـ تعالى ـ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٥]

الآية الكريمة في نور السياق

سورة الأعراف هي أوسع سور الذكر الحكيم حديثا عن قصص السابقين، هي وسورة هود، وهذا مما يتناسب مع افتتاحها (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج

منه لتنذر به وذكرى للمـؤمنين) (الأعـراف/٢،١) وهـذا الافتتاح يجمل مقصودها الذي تتظاهر على تحقيقه تراكيبها ، ومقصودها " إنذار من أعرض عما دعا إليـه الكتـاب فـي السورة الماضية من التوحيد" [١] والأعلى في تحقيق الإنـذار هو ذكر أحوال الغابرين للاعتبار بها، لأن حادثـات التـاريخ التي تحققت وبقيت شواهد على تحققها مما يدفع كل ريب في الإنذار، ويلهب كل صدر إلى الإقلاع عما هـو عليـه مـن الشرك والكفر، وقد جاءت هذه الحلقة من قـصة شـعيب ــ عليه السلام ــ تلو حلقات من قصص إخوانه من الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط ــ سلام الله عليهم أجمعين ــ ومن بعـد قصته جاءت قصة موسى ــ عليه السلام .

من عطاء النظم الكريم

التركيب الأول (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

جاء هذا التركيب معطوفا بالواو عطف قصة على قصة لا عطف مفردات، وتقدير الكلام : وأرسلنا إلى مدين . . [٢] وقد

---

(١) نظم الدرر ٣/٣

(٢) ينظر : فتح القدير ٢٢٣/٢، إرشاد العقل السليم ٢٤٤/٣، روح المعاني ٤١٢/٤.

تقدم الجار والمجرور على المفعول به؛ إلماعــا إلــى شــدة حرص المرسل والرسول على مصلحة القوم ، وهذا التصرف اللغوي في الكلام داع إلى إقبالهم، دافــع لإعراضــهم،كما أن ذكر النبي بعنوان الأخوة (أخاهم) فيه مــن إظهــار الــشفقة والخوف عليهم ما فيه، وهو متناغم مــع تقــديم المجــرور، ومدين أمة سميت باسم جدها مدين بن إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ من زوجته الثالثة التي تزوجها في آخر عمره [1]

التركيب الثاني (قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ)

جاءت هذه الجملة مفصولة عن سابقتها لما بينهما مــن شبه كمال الاتصال؛ فهي استئناف مبني على سؤال نشأ عــن حكاية إرساله إليهم فكأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ [2] وفي ذلــك من الإيجاز والاختصار وقوة الرابطة بين الكلام ما فيه، وقــد بدأ خطاب قومه بــ(يا) النداء تنبيها لهم إلى خطر مــا يلقــى إليهم، وجاء المنادى بلفظ (قوم) مضافا إلــى يــاء المــتكلم؛

---

(1) ينظر : جامع البيان للطبري ١٦٦/٨، مفاتيح الغيب ١٩٢/١٣، أنوار التنزيل ٤٧٧/١، تفسير ابن كثير ٢٣١/٢، فتح القدير ٢٢٣/٢، التحرير والتنوير ٢٣٩/٨.

(2)ينظر : إرشاد العقفل السليم ٢٤٤/٣،٢٤٥، روح المعاني ٤١٣/٤.

إشعارا لهم بالعطف والشفقة والرحمة [1] حملا لهم على قبول النصح وأمرهم بالأعلى من الرسالات شأن إخوانه من الأنبياء السابقين (اعبدوا الله) ووقع المفعول به لفظ الجلالة وهو أهيب أسماء الله ــ عز وعلا ــ إدخالا للهيبة في قلوبهم ، ثم عقب الأمر بالتعليل له (مالكم من إله غيره) وفي بناء جملة التعليل أسرار بلاغية لا تتناهى ، منها تقديم المجرور (لكم) ووقــوع حرف الصلة (من) داخلا على نكرة في ســياق نفــي؛ بيانــا للاستغراق، وفيه من تأكيد تفرده بالألوهية ما فيــه، وجــاءت (غيره) تأكيدا لتفرده بالألوهية .

التركيب الثالث (قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)

جاءت هذه الجملة مقطوعة عن سابقتها لما بينهمــا مــن كمال الانقطاع فالأولى إنشائية لفظا ومعنى، وهذه خبرية لفظا ومعنى؛ إيذانا بتغاير المعنيين؛ وبيانا لقوة البينة التــي أتــاهم بها، وكأنها شئ منفصل عن جملة دعوته تلك، والعــرب إذا أرادت إبراز مكانة شئ ما أفردته بالحديث حتى يكون عمــدة الكلام، لا تابعا لكلام آخر، وقد قيد المسند بــ(قد) التحقيقيــة؛ تأكيدا لمجيئ الحجة، وفيه من تأكيد صدق الدعوى مــا فيــه،

([1]) ينظر : نظم الدرر ٣/٦٥.

وقد قدم المفعول به (الضمير في جاء) على المسند إليه (بينة) كشفا عن ظهور الحجة وقصدها لهم، وفي ذلك من العناية بهم؛ وإسقاط عذرهم ما فيه، وقد وفر النظم الكريم العناية على قوة الحجة وظهورها، فذكر المسند إليه بعنوان البينة ؛إلماعا إلى وضوحها وجلاء أمرها، وفي تقييد المسند إليه بالجار والمجرور (من ربكم) تناغم مع أرسلنا المحذوفة ، وحمل على عبادته وتوحيده، وذكره بعنوان الربوبية فيه إلاحة إلى استحقاقه العبادة، ولم يضف إلى الألوهية لأن لها استحقاقات غير الربوبية ، فللألوهية استحقاق التوحيد من العبيد، وللربوبية استحقاق العبادة من المربوبين.

التركيب الرابع (فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ)

عقدت الفاء هذه الجملة بسابقتها؛ إلماعا إلى أن قوة الحجة وجلاء أمرها داعيان إلى عدم مطل الزمن، وإلى الإسراع إلى إنفاذ المطلوب، لذا قالوا : الفاء لترتيب الأمر على مجيئ البينة [1] وجاء بالأمر بإيفاء الكيل عقيب التوحيد؛ إيذانا بخطر أمره، وإعلاما بفشو التطفيف والإخسار في

([1]) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢٤٥/٣، حاشية زادة ٢٥٥/٢، روح المعاني ٤١٣/٤.

هؤلاء القوم، قال الفخر معلقا على هذا التركيب " واعلـم أن عادة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذا رأوا قومهم مقبلين علـى نوع من أنواع المفاسد إقبالا أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع " [١]

وجاء المسند واو جماعة إذ في مواجهـة المخاطـب؛ دلالة على خطر الأمر وشدته، والظاهر أنه قدم الكيل علـى الميزان ؛ لأن الأول كان أشيع في المعـاملات بـين القـوم، والواو وإن لم تفد ترتيبا إلا أن تقديم الكيل على الميزان يؤذن بما أسلفنا، والأمر بالإيفاء فيه حفاظ على حقوق المـشترتين لأن الكائل والوازن هو البـائع، وهـو الـذي يحملـه حـب الاستفضال على تطفيف الكيل" [٢]

التركيب الخامس (وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ)

جاءت هذه الجملة بالواو؛ إيذانا باشتراكها مع الجملـة السابقة، فهي وإن كانت تشارك سابقتها في المقصد العام، إلا أنها أعم من سابقتها، والنهي مؤذن بأن البخس كان شائعا بين القوم ، فدعاهم إلى الإقلاع عنه "والبخس : نقص الشئ علـى

---

(١) مفاتيح الغيب ١٣/١٩٣.

(٢) التحرير والتنوير ٨/٢٤٣.

سبيل الظلم . . . والبخس والباخس : الشئ الطفيف الناقص" [1] " والبخس : هو النقص على وجه الإهانة والمخادعة والتزهيد" [2] وهذا يعني أن الخسة والحقارة كانت شائعة بينهم كما يليح به معنى البخس ، وفي مواجهتهم بالنهي عن هذا الفعل تحقير لهم، وحمل على إقلاعهم عنه، وفي وقوع لفظ (الناس) مفعولا به تشنيع لفعلهم ؛ إذ هو توجيه لهم إلى أن البخس ليس متجها إلى الأشياء حسب، وإنما إلى أصحابها، وهذا التفظيع داع لهم إلى الإقلاع ، وهو منهج بليغ في الدعوة إلى التخلي، وينصره إضافة الأشياء إلى الضمير العائد على الناس (أشياءهم) لما في الإضافة من معنى الملك، وفيه كشف عن بشاعة الظلم وفشو السطو على أملاك الآخرين ، وكل ذلك مما يلهبهم على الإقلاع عن البخس، وبذلك تكون حقوق الطرفين قد طلب فيها الوفاء ؛ لأن النهي " عن بخس الناس أشياءهم يرجع إلى حفظ حقوق البائع؛ لأن المشتري هو الذي يبخس شئ البائع ليهيئه لقبول الغبن في ثمن شيئه" [3]

([1]) المفردات (ب خ س) ٣٨.

([2]) ينظر : نظم الدرر ٥٦٥/٣، فتح القدير ٢٢٤/٢، التحرير والتنوير ٢٤٢/٨.

([3]) التحرير والتنوير ٢٤٣/٨،٢٤٤.

التركيب السادس : (وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ)

جاء هذا التركيب معطوفا على سابقه ، والنهي هنا نهي بليغ، وفي التركيب إيجاز واف لمعنى ضاف، فالنهي عن الإفساد هنا إما أن يكون؛ إيذانا بأن ما مضى إفساد في الأرض، ولا يقوى عاقل على القول بقبوله، وفي ذلك من التشنيع لما مضى ما فيه، وإما أن يكون إجمالا لكل القبائح،وبيانا لخطرها على الأرض، وفي ذلك من الإيجاز ما فيه، ويكون في ذلك تعميم بعد تخصيص؛إيذانا بخطر ما مضى.

وقد دخل حرف الجر (في) على الأرض إيذانا بخطر الإفساد وانغلاله في قلب الأرض، وفي ذلك من بيان الإفساد مافيه، وقيد الفعل بالظرف(بعد إصلاحها) إنباء عن امتنان المنعم على العباد، وكشفا عن حجم الفساد، ولو لم يذكر هذا القيد لما كان هذا المعنى مؤكدا، فقد جاء القيد تأكيدا لإفسادهم ؛ ذاك أن النهي عن الإفساد دال بالمفهوم على أن الأرض صالحة، والقيد دال بالمنطوق على أن الأرض صالحة، وفي هذا تأكيد على جرم الإفساد ، وفي كل ذلك من الحمل على الإقلاع عنه ما فيه.

التركيب السابع : (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ)

هذه الجملة تذييل لتأكيد ما مضى ؛ إيذانا بأن الخير في الاتباع والانتهاء، وفي وقوع المسند إليه اسم إشارة للبعيد تعظيم لشأن ما مضى من الأوامر والنواهي، وفي مجيئ المسند (خير) أفعل تفضيل إشعار بالنصفة ، وفيه من حملهم على الطاعة ما فيه؛ ذاك أن إيهامهم بأن ما نهوا عنه أفضل وأكثر خيرا مما يفعلونه دعوة لهم إلى بحث ما هم عليه من شناعات، والإحالة على النفس ومراجعتها من بالغ الأمور في الدعوة إلى الحق، وعند العلماء أنه لامعنى للتفضيل هنا ،وأن المعنى ذلكم نافع لكم ،أو أن الزيادة هنا مطلقا أو في الإنسانية [١] والأمر – كما ترى – وما لايحتاج إلى تأول أعلى مما يحتاج إلى تأول، وفي التعبير بالجار والمجرور (لكم) دعوة لهم إلى الإسراع إلى ما فيه خير لهم "والتنكير في قوله (خير) للتعظيم والكمال" [٢]

---

(١) ينظر : أنوار التنزيل ٣٥٨/١، روح المعاني ٤١٤/٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٥/٨.

التركيب الثامن (إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)

وقعت الجملة الشرطية مفصولة عما مضى لأنها شرط وقع قيدا للجملة الماضية ، وقد حذف جواب الشرط ، والحذف أوسع من الذكر؛ لأنه يمكن تقدير جواب الشرط عدة تقديرات ، وكلها تتجاور وتتحاور، والأعلى ــ فيما أبصر ــ أن يكون التقدير : إن كنتم مؤمنين فاعبدوا الله وأوفوا الكيل . . . وفي ذلك من البلاغة والإيجاز ما فيه ، وقد عبر بــ (إن) كشفا عن قلة توقع إيمانهم وإنفاذهم لما مضى من أمر وكفهم عما مضى من نهي " ومثل هذا الشرط ــ على ما قال الطيبي ــ إنما يجاء به في آخر الكلام للتأكيد " [1] أي: لتأكيد ما دعا إليه من أول الآية إلى آخرها، وقد اختلفوا في تقدير جواب الشرط فمنهم من قدره : فبادروا إليه [2] غير أن الأعلى هو ما أسلفت القول عنه .

---

(1) ينظر : روح المعاني ٤/٤١٤.

(2) ينظر تفسير الجلالين والفتوحات الإلهية ١٦٣/٢.

٢ــ قال :ــ تعالى ــ (﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود: ٨٤-٨٥]

الآيتان الكريمتان في نور السياق

الآيتان الكريمتان وردتا في سورة هود، وهي السورة التي تلي سورة الأعراف اتساعا في ذكر قصص السابقين، وهي التي قال فيها النبي ــ ﷺ ــ "شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت" وفي رواية "هود وأخواتها" (١) والآيات الواردة في قصة شعيب ــ عليه السلام ــ في سورة هود أبسط مما في سورة الأعراف ، وهذا البسط ملائم لما ذكر في صدر سورة هود (آلر كتاب

---

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن باب سورة الواقعة،و تفسير القرآن العظيم ٢/٤٣٥.

أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (هود/١) وهذا المطلع هو الذي يجمل مقصود السورة، ومقصودها:" وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل في حالتي البشارة والنذارة" [١] فما أجمل في الأعراف فصل في هود، وقد جاء كل مناسبا سياقه ملائما مقامه.

من عطاء النظم الكريم

الآيتان الكريمتان مركبتان من ثمانية تراكيب نحاول إبصار خمسة منها والثلاثة الأخر سبق الحديث عنها في سورة الأعراف،وهي (وإلى مدين أخاهم شعيبا ــ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ــ ولا تبخسوا الناس أشياءهم)

التركيب الأول: (وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ)

الملحوظ أنه قدم هنا النهي عن النقص على الأمر بالوفاء؛ تقديما للتخلية على التحلية، وتوجها بالخطاب إلى التجار لأنهم على النقص أحرص من الإيفاء، وفي هذا زيادة تفصيل عما في الأعراف؛ تناسبا مع مقصد سورة هود ومطلعها، ولما كانت عادة التجار النقص والتطفيف، والإخسار توجه إليهم بالخطاب أولا لكثرة جريان ذلك في

---

(١) نظم الدرر ٤٩٨/٣.

معاملاتهم، ولحرصهم على جمع المال من الشئ الطفيف، أخر الحديث عن الإيفاء ؛ لأن النهي عن النقص أولى من طلب الإيفاء، فقدم ما هو أولى بالنهي، وذكر في الأعراف المصدر (الكيل) وذكر هنا الآلة مبالغة في طلب الإيفاء، وعدم الإنقاص موجه للآلة فالنهي عن إنقاص ما تكال به الآلة أعلى، قال البقاعي :" (ولا تنقصوا المكيال والميزان) أي: لا الكيل ولا آلته ولا الوزن ولا آلته " [١]

التركيب الثاني (إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ)

وقعت هذه الجملة تعليلا للنهي [٢] حملا للمخاطبين على الامتثال والانتهاء بتهديدهم بإذهاب ما هم فيه من خير؛ وإيذانا بأن بقاء ماهم فيه من خير مرتهن بالتوحيد، وعدم إنقاص الكيل والميزان، وقد أكدت الجملة بـــ (إن) تأكيدا لشهادته إذ الرؤية شهادة، وفي هذه الجملة إظهار لحرصه على قومه وشفقته بهم، وإرادة دوام الخير لهم، كل ذلك مما يحمل على الانصياع للحق والانصراف عن الخلق، ففي

---

(١) نظم الدرر ٥٦٤/٣.

(٢) ينظر : فتح القدير ٥١٨/٢، أنوار التنزيل ٤٧٧/١،إرشاد العقل السليم ٢٣٠/٤، التحرير والتنوير ١٣٧/١٢.

التركيب ترهيب وترغيب، " بالإشارة إلى أن الكفر موجب للنقمة ،كما أن الشكر موجب للنعمة" [١]

التركيب الثالث (وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ)

جاء هذا التركيب معطوفا على جملة التعليل؛ ترقيا بالتعليل وتأكيدا له، وحملا على إنفاذ النهي، وكشفا عن شفقته عليهم، ألا تراه أكد أنه يخاف عليهم، ثم أضاف المفعول به **(عذاب)** إلى اليوم الموصوف بأنه محيط مبالغة في الترهيب، ساق إليها المجاز العقلي الواقع من إسناد ما يشبه الفعل إلى زمانه؛ حملا لهم بتشديد الترهيب على الإقلاع عن الإنقاص؛ لذا قالوا : " وصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب على الإسناد المجازي، وفيه من المبالغة ما لا يخفى؛ لأن العذاب واقع في اليوم، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم أنه لا يشذ منهم أحد عنه، ولايجدون منه ملجأ ولا مهربا" [٢]

([١]) نظم الدرر ٥٦٤/٣.

([٢]) ينظر الكشاف ٢٨٥/٢، إرشاد العقل السليم ٢٣٠/٤، فتح القدير ٥١٨/٢، الفتوحات الإلهية ٤١٦/٢، التحرير والتنوير ١٣٧/١٢.

التركيب الرابع (وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ)

كرر نداءهم بلفظ القوم مضافا إلى ياء المتكلم؛ إعلانا للشفقة والرحمة، وبيانا لإخلاص النصح الذي تقتضيه صلة الدم، واختص التركيب هنا بهذا القيد (بالقسط) عما في الأعراف زيادة في التفصيل؛ تلاؤما مع مقصد السورة ؛وتأكيدا لإنفاذ الإيفاء على وجه لا يحتمل المجاز، وبذلك يكون الأمر بالإيفاء كأنه حصل مرتين الأولى بالمفهوم والثانية بالمنطوق، لذا قال العلماء : إن " النهي عن النقص وإن كان يستلزم الإيفاء إلا أن في تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن" [١] وأنه صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيها على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى دونها"[٢]

وقد قالوا : إن التكرار وقع في القصة من ثلاثة أوجه ، حيث رأوا أن هذه الجمل (ولا تنقصوا المكيال والميزان ـــ

(١) ينظر : فتح القدير ٥١٨/٢.

(٢) أنوار التنزيل ٤٧٧/١.

أوفوا الكيل والميزان ــ ولا تبخسوا الناس أشياءهم) تكرارا؟ وذكروا أن الوجه في ذلك : أن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد؛ فلهذا كرر ذلك ليقوي الزجر والمنع من ذلك الفعل [١]

التركيب الخامس (وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

النهي هنا أكثر تفصيلا منه في سورة الأعراف؛ تلاؤما مع مقصد سورة هود ومطلعها " والعيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسا والعثي فيما يدرك حكما" [٢] والعثو والفساد وإن تقاربا إلا أن بينهما فرقا دقيقا وآيته أن الإفساد في هذا التركيب جعل قيدا للعثو، والحق أن العثو أشد الفساد ، فالتعبير بهما في سياق واحد دال على أن الإفساد واقع منهم في الحياة وفي العقيدة، فلو ذكر الفساد فقط لفهم منه "أن فسادهم مقصور على فساد الفكر والعقيدة، وأن حركتهم الحسية ضربا في الأرض وتعاملا مع مصالح العباد لا يشوبها خلل ولا يعتريها

---

(١) ينظر : مفاتيح الغيب ٥٩٠/١٦، الفتوحات الإلهية ٤١٦/٢.

(٢) المفردات (ع ث ى) ٣٢٢.

فساد ، فجاء الحال دالا على أن فساد عقيدتهم كان مصحوبا بفساد آخر . . . وبذلك يكون الجمع بين الفعل والحال غرضه نهيهم عن الكفر وما اقترن به من الإفساد في الأرض" [١]

وقد أوجز الرازي ما سبق في مسائله حين قال : " فإن قيل: قوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) العثو: الفساد فيصير المعنى، ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟ قلنا:معناه:ولاتعثوا في الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بسائر المعاصي"[٢] وبهذا ختمت آيتا الكيل والميزان في هذه السورة بما هو أكثر تفصيلا من سورة الأعراف حيث ختمت هناك بقوله (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) تلاؤما مع السياق في كل، فالإيجاز يلائمه الإيجاز والتفصيل يلائمه التفصيل.

([١]) ينظر : من أسرار القيد بالحال في النظم القرآني ٦ د/ محمد الأمين الخضري بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد الحادي عشر ١٩٩٣م.

([٢]) ينظر : مسائل الرازي وأجوبتها ٥ لمحمد الحنفي الرازي تحقيق / إبراهيم عطوة ، ط، مصطفى الحلبي ١٩٦١م.

٣ــ قال ــ تعالى ــ ﴿ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

[الشعراء: ١٨١-١٨٢]

الآيتان الكريمتان في نور السياق

الآيتان الكريمتان وردتا في سورة الشعراء، وهي تشبه سورتي الأعراف وهود من حيث احتواؤهما على كثير من قصص النبيين، إلا أن القصص فيها بني على الإيجاز، وقد جاءت هذه الحلقة من قصة شعيب ــ عليه السلام ــ في سياق قصص النبيين؛ تحقيقا لمقصود سورة الشعراء الذي تتظاهر على بيانه تراكيبها، ومقصودها " أن هذا الكتاب بين في نفسه بإعجازه أنه من عند الله مبين لكل ملتبس، ومن ذلك بيان آخر التي قبلها بتفصيله وتنزيله على أحوال الأمم وتمثيله وتسكين أسفه ــ ﷺ ــ خوفا من أن يعم أمته الهوان بعدم الإيمان" [١] أي: أن ذكر أحوال السابقين وتفصيلها كان السبيل الأعلى لبيان أن الكتاب مبين بنفسه.

---

[١] نظم الدرر ٣٤٤/٥ .

الآيات الثلاثة تشتمل على خمسة تراكيب تناولنا اثنين منهما فيما مضى، من تحليل آية الأعراف، وتناولنا تركيبا منها في سورة الإسراء، ويقتصر تحليلنا هنا على تركيبين (أوفوا الكيل ــ ولا تكونوا من المخسرين)

التركيب الأول (أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ)

بعد أن أمرهم بتقوى الله وطاعته، وأكد لهم صدقه بانتفاء سؤالهم أجرا على دعوته استأنف آمرا إياهم بالوفاء بالكيل، والظاهر أن تجار قومه كانوا قد تمالؤوا على عدم إيفاء الكيل فابتدأ تفصيل الدعوة طلب الإيفاء؛ وفعل الأمر دال على أن الإيفاء لم يكن موجودا لأن الموجود القائم لايطلب، فبدأ بالتحلية قبل التخلية على عكس ما مضى في هود ؛ استيفاء لكل الطرائق في دفع المفاسد، ويتميز حديث القرآن عن الكيل والميزان في قصة شعيب هنا بالتفصيل في الكيل والميزان، ففي السورتين السابقتين ذكرا مقترنين أما هنا فقد خص الكيل بطلب الإيفاء، وخص الوزن بالأمر بأن يكون بالعدل، وهو مما يكشف أن القوم كانوا قد بلغوا الذروة في الجور في الكيل والميزان، كما أن هذا التدرج في التفصيل

من الأعراف إلى هود إلى الشعراء يكشف عن فشو ذلك فيهم وشيوعه.

التركيب الثاني: (وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ)

جاء هذا التركيب معطوفا على سابقه استيفاء لطرائق دفع المفاسد، وربما يظهر أنه كان من الأوجز أن يقال: ولا تخسروا ؟ ولكن ما جاء عليه النظم الكريم أبلغ في النهي لأنه نهاهم أن يعدوا من المخسرين،أي: لا تبتعدوا عن الإخسار فحسب، بل اجتهدوا ألا تعدوا معهم، بل تبرؤوا أن تكونوا منهم، كما أن في هذا التركيب إلماعا إلى أن منهم من كان الإخسار صفة ثابتة فيه، وفي ذلك تشنيع عليهم، ففي التركيب مبالغة، قال الألوسي :" ولعل المبالغة المستفادة من التركيب متوجهة إلى النهي . . . وأيا كان ففي النهي المذكور تأكيد للأمر السابق عليه"[١] وصوغ المخسرين " أبلغ من : لاتكنوا مخسرين لأنه يدل على الأمر بالتبرؤ من أهل هذا الصنيع"[٢]

---

(١) روح المعاني ١١٦/١٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٨٤/١٩.

ثانيا: بلاغة النظم القرآني في آيات الكيل في قصة يوسف ــ عليه السلام

ورد ذكر الكيل في عدة آيات من سورة يوسف ــ عليه السلام ــ بالأرقام التالية (٥٩، ٦٠،٦٣، ٦٥، ٨٨)

الآيات الكريمات في نور السياق

سورة يوسف ــ عليه السلام ــ لها خصائصها الأسلوبية والقصصية التي تجعلها متفردة وحدها في الذكر الحكيم علما على القصة المتحدة الموضع، المتسلسلة الأحداث، ولقد ورد ذكر الكيل فيها خمس مرات، اثنتان منها على لسان سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ والثلاث الأخر على لسان إخوته، وترى الموضع الأخير لذكر الكيل ينادي على الموضع الأول، فقد حكى القرآن العظيم عنهم (فأوف لنا الكيل) (يوسف/٨٨) وهو موضع آخر ذكر الكيل في السورة، وهو ينادي على قوله ــ تعالى ــ حكاية عن يوسف ــ عليه السلام ــ (ألا ترون أني أوفي الكيل) (يوسف/٥٩) وسورة يوسف هي السورة الثالثة والخمسون نزولا، وهي مكية ، وقد نزلت في فترة شديدة من حياة الدعوة في مكة، فجاءت السورة تسلية له ــ ﷺ ــ وإيذانا بتفريج كربه وعلو أمره،

وتمكينه في الأرض، وفي سياق المقال ترى الكيل جاء سببا في إظهار يوسف ــ عليه السلام ــ على إخوته وتمكنه من جلب أخيه، وكان الحديث عن الكيل ذا أثر بالغ في تحقيق الرؤيا التي رآها والتي وقعت في صدر السورة.

١ــ قال ــ تعالى ــ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: ٥٩-٦٠]

من عطاء النظم الكريم

قيامه على تكريمهم بنفسه ودلالاته

جاء الحديث عن الكيل في هاتين الآيتين الكريمتين بألصق الأساليب بمراد سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ لأن من أراد إنجاز شئ علّقه على شرط، وقد علق ــ عليه السلام ــ ما به قوام حياتهم على الإتيان بأخ لهم من أبيهم واستخدمت لما الزمانية ، لما للزمن من أثر بالغ في عرض المطلوب، وجاء بعد لما بجملة دالة على نفاذ بصيرته (جهزهم بجهازهم) وفي إسناد الفعل إليه دلالة على عظيم

تكريمه لهم إذ قام على جهازهم بنفسه، وقد قيد الفعل بالجار والمجرور ؛دلالة على فراغ أمرهم وانتهاء رحلتهم وتمكنهم من الميرة، وفيه من الإكرام ما يحملهم على إنفاذ شرطه، وتحقق عرضه، ولم يكن من الإكرام أن يشترط عليهم قبل أن يصيروا متمكنين من مطلوبهم محققين ما كابدوا من أجله مشاق الأسفار .

التراكيب تكشف عن النباهة في الطلب

وقد جاء الشرط بعد هذه التهيئة التي فتحت قلوبهم (ائتوني بأخ لكم من أبيكم) وقال : بأخ لكم ، ولم يقل بأخيكم " تنابها في التظاهر بجهله به، فعدل عن الإضافة المقتضية المعرفة" [١] وعبر بالإتيان لما له به من تعلق، وعقب على ما اشترط بجملة افتتحت بالاستفهام التقريري، وجاء بالفعل(ترون) إحالة على الواقع المشاهد ،وهو أقوى في التقرير؛ لذا لم يكن فإني أوفي الكيل، وفي هذه الجملة " ترغيب لهم في العود إليه" [٢] وقد أكد إيفاءه الكيل بأن؛ تنزيلا لهم منزلة الشاك؛ حملا لهم على سرعة الإقرار، وجاء بالفعل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٣.

(٢) السابق ١٣/١٣.

بالفعل مضارعا مع أن الإيفاء قد انتهى؛ إلماعا إلى أن صورة الإيفاء ما زالت ماثلة أمام أعينهم ثابتة في خيالاتهم ، أو أنــه قال لهم هذه المقالة" للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة" (١)

اسمية الجملة ودلالتها على استمرار الإكرام

ثم عطف على هذه الجملة جملة أخــرى (وأنــا خيــر المنزلين) وجاء بها بصيغة الاستمرار والثبــوت ، لا تعبيــرا لهم ، ولكن حملا لهم على إنفاذ مطلوبه، وإلماعا إلى أنه مــا أراد من طلب الأخ إلا زيادة الإكرام، فقد أحاط بمطلوبه مــن التراكيب ما يكشف عن أن رغبته في جلب أخيه إليه كانــت شديدة طاغية.

أسلوب الشرط وما يكتنزه من الترهيب بعد الترغيب

ثم جاءت الجملة الشرطية بعدها مقترنة بالفاء؛ تعقيبا على الترغيب بالترهيب، وهو ما يعني أن رغبتــه عارمــة، وملحة جارفة لولا الإيمان لطغا السلطان، ولكن إن لــم يكــن الترغيب سبيل تحققها، فليكن الترهيب سبيل إحــداثها، وقــد كشف استخدام (إن) عن شعوره بتحقق مطلوبه، إذ هي لتقليل وقوع ما في حيزها، وما في حيزها منفي، أي: على الاحتمال

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢٨٧/٤،فتح القدير ٣٧/٣، روح المعاني ١٠/٧.

القليل في عدم إتيانكم به(فلا كيل لكم عندي) " وهـذا نهايـة التخويف لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام" [1] وقد صيغ جواب الشرط بلا النافية للجنس؛ إعلاء لـشأن الوعيـد والتهديد، وسياق الحال زمن القصة دال على أنه كـان أبلـغ الوعيد، لأن حياتهم متعلقة به، ولا باب لقوام حياتهم غير هذا الباب .

وقد جاء الجار والمجرور (لكم) إبلاغـا فـي التأكيـد وذكر قيد آخر (عندي) زيادة في التأكيد لأنهم يعلمون أنـه لا كيل ذاك الزمان عند سواه، ثم عطفت علـى جملـة جـواب الشرط جملة أخرى تقطع عليهم كل سبيل لمحاولة استرضائه من غير إنفاذ شرطه (ولا تقربون) وترى صدى هذه البلاغة العلية في جوابهم المشحون بالتوكيد، واتباع ما يخطـر بكـل بال من الحيل لتحقيق شرطه (قالوا سنراود عنه أبـاه وإنـا لفاعلون) (يوسف/٦١) وهو وإن انتقل من الترغيب الجـذاب إلى الترهيب المريع بما كشف عن رغبته العارمة في جلـب أخيه ورؤيته إلا أنه عاد إلى الترغيب الحامل علـى تحقيـق المطلوب صنيعا بعد أن أزجاه قولا(وقـال لفتيانـه اجعلـوا

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٤٦٥.

بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلـــى أهلهـــم لعلهم يرجعون) (يوسف/٦٢) وسنرى صداه في إنفاذ مطلوبه من بعد ذلك .

٢ ــ قال ــ تعالى ــ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣﴾ [يوسف: ٦٣]

من عطاء النظم الكريم

النظم الكريم مشحون بما دل على أن خطاب النبي الكريم لهم وترغيبهم وترهيبهم لتحقيق مطلوبه مازال ماثلا في أذهانهم لم يفارقهم، وذلك ما يليح به افتتاح الجملة بـــ(لما) الزمانية واقترانه بالفاء الدالة على أنهم لم يمطلوا الزمن ،وأن رغبتهم إلى تحقيق مطلوب يوسف ــ عليه السلام ــ أضحت هدفا أعلى، ولم لا ؟ وقد علق تحقيق مطلوبه على ما به قوام حياتهم؛ لذا ترى إصرارهم بالغا يليح به التركيب الكريم (يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل) بدأوا بما هو أعلى في حمل أبيهم على تحقيق مرغوبهم (منع منا الكيل) والكيل لم يمنع، وإنما أخرجوه مخرج الممنوع ، ترقيقا لقلب أبيهم ، وحملا له على إنفاذ مرادهم، وقولهم (من) فيه إشعار منهم لأبيهم أنه كان بأيديهم ثم اختطف منهم وغلبوا عليه؛ لذا لم يرد النظم منع عنا، وفي تقديم المجرور تأكيد على القطع

بالمنع، وفي تأخير المسند إليه تشويق وإلهاب، ثم جاء الطلب (فأرسل معنا أخانا نكتل) أرأيت كيف كان البيان البليغ سبيلا إلى تحقيق مبتغاهم، فقد حصروا دفع منع الكيل عنهم في إرسال أخيهم معهم ، وجعلوا تحقق الكيل جوابا للطلب (نكتل) وكل ذلك ولم يلتقطوا أنفاسهم من مشقة الرحلة ، كما تدل عليه التراكيب بعد ذلك فقد قالوا كل هذا ولما يفتحوا متاعهم بعد.

وقد جعلوا مطلوبهم من أبيهم بين أمور :

الأول : تفزيع قلب أبيهم بإخباره بمنع الكيل عنهم وفيه ما فيه من ضياعهم وضياع أهلهم وأولادهم .

الثاني: ترغيب أبيهم في دفعه منع الكيل عنهم .

الثالث: عطفت جملة على ما مضى (وإنا له لحافظون) دافعة عن أبيهم ما يدور في باله، ولم يفارقه من قصة يوسف ولده؛ لعلمهم بدوام حزن أبيهم من فقده يوسف ــ عليه السلام ــ لذا أوردوا كلامهم مؤكدا بـــ (إن واسمية الجملة) وقدموا الجار والمجرور وخاطبوه خطاب المنكر عليهم حفظهم لأخيهم ، أرأيت كيف توالت سهام التفزيع والترغيب على يعقوب عليه السلام ــ حملا له على تحقيق مطلوبهم؛ صنيع أخيهم يوسف

ــ عليه السلام ــ معهم ، من قبل أن يصنعوه مع أبيهم ؟ ذاك أن للغة أسرا للقلوب يذوقه من صفت نفسه ورقت روحه.

٣ــ قال ــ تعالى ــ ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِىۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥ ﴾ [يوسف: ٦٥]

من عطاء النظم الكريم (أثر الصنيع في تحقيق المرغوب فيه)

تحقق رجاء يوسف عليه السلام ــ من صنيعه حين أمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم، حيث حملهم هذا الصنيع على معاودة مراودة أبيهم، ودفعهم إلى المضي قدما في تحقي مرغوب يوسف ــ عليه السلام ــ الذي علق تحقيقه على ما به بقاء حياتهم وهو الطعام.

وقد افتتحت الآية الكريمة بــ(لما) الزمانية (ولما فتحوا متاعهم . . .) وذكر الزمان هنا مهم لما انبنى عليه من أحداث ،فقد طاروا فرحا كما دلت عليه " هذه الجملة الاستئنافية " [١] (قالوا يا أبانا ما نبغي) وقد بنى النظم الكريم بناء مثيرا حيث ذكروا هذا الحديث تعبيرا عن

---

(١) فتح القدير ٣٩/٣.

مباغتتهم بما أبصروا حين فتحوا المتاع؛ لذا افتتح كلامهم بأسلوب النداء؛ تنبيها لأبيهم إلى دهشة ما أبصروا، ومن بعد ذلك جاء بالاستفهام " الإنكاري" (١) التعجبي تناسبا مع حال دهشهم؛ وإدخالا لأبيهم معهم في حال الدهش ؛ حملا له على إنفاذ مطلوبهم ، فما أيسر إنفاذ المطلوب حال الدهش ! ولما أدخلوه معهم حال الدهش بدأوا بإلانته ، وقد ذكروا أن هذه الجملة جاءت استئنافا بيانا لما مضى وتأكيدا للسؤال في استصحاب أخيهم (٢) (هذه بضاعتنا) وجاء المسند إليه اسم إشارة لتمييزه أكمل تمييز؛ كشفا عن حال الدهش، ثم عرف المسند بالإضافة كشفا عن تخصيصها بهم، وأنها بضاعتهم لا سواها، وهذا التركيب كاشف عن أنهم اتخذوا من إثبات كرم يوسف ــ عليه السلام ــ سبيلا لإلانة قلب أبيهم، ثم قيد المسند بجملة حالية ، وتأويل الكلام: هذه بضاعتنا مردودة إلينا؛ تأكيدا على تمام كرمه،لأن الكرم بالإيفاء، وتمامه برد الثمن، ولو قيل: هذه بضاعتنا موجودة هنا لما أشعر بالكرم ،

---

(١) السابق ٣٩/٣.

(٢) ينظر : الكشاف ٣٣١/٢، أنوار التنزيل ٥٠١/١، إرشاد العقل السليم ٢٨٩/٤، نظم الدرر ٦٩/٤، الفتوحات الإلهية ٤٦٦/٢، روح المعاني ١٣/٧، التحرير والتنوير ١٧/١٣.

فلربما يكون وجودها نسيانا من الفتيان، فجاءت الجملة الحالية دفعا لذلك، وإثباتا لتمام الكرم؛ وفي ذلك ما فيه من حمل أبيهم على إنفاذ مطلوبهم، وقد طوى النظم الكريم أنهم طلبوا إرسال أخيهم كما حدث أولا، وكأن حسن الصنيع صار مغنيا لهم عن إعادة الطلب لأبيهم فتوفرت عنايتهم على شئ آخر، وكأن مطلوبهم تحقق، وذاك من قراءة حال أبيهم، وينصره أن التراكيب التالية جاءت بالواو (ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير) ونمير: أي: "نجلب لهم الطعام" [1] وهذه الواو مؤذنة بحذوف في الكلام، والتقدير : " فنرجع بها إليه بأخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا" [2] أو نستعين ونمير [3]

وقد قدموا ما يحمل أباهم على إنفاذ مطلوبهم (ونمير أهلنا) وفيه إشعار لأبيهم بأن عدم إرسال أخيهم معهم فيه ضياع للأهل والولد، وأن ضياعهم معلق برقبة أبيهم لا برقابهم، ثم أعادوا أن الخطب في أمر أخيهم هين، فبينوا أنهم سيحفظونه له وأن ذلك من باده الأمور دون توكيد كسنتهم الأولى، ثم عطفت جملة بعد ذلك دالة على أنهم سيحفظون

---

(1) ينظر : فتح القدير ٣٩/٣، التحرير والتنوير ١٧/١٣.

(2) نظم الدرر ٦٩/٤ .

(3) الفتوحات الإلهية ٤٦٧/٢.

أخاهم لتحقيق مصلحتهم ذاك؛أن ازدياد الخير معلق بإرسال أخيهم وبقائه محفوظا، وينصره أنهم جعلوا الزيادة للجماعة(ونزداد) وفي كل ذلك زيادة في إظهار حرصهم على حفظ أخيهم "لأن في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل يسير" [١]

ختام الآية ودلالاته

ختمت الآية بقوله(ذلك كيل يسير) وهذه الجملة واقعة من سابقتها موقع شبه كمال الاتصال، كأن سؤالا طرح نفسه، ولماذا تطلبون الزيادة؟ فقالوا : ذلك كيل يسير، فالجملة استئناف وقع تعليلا لما سبق " [٢] وهي مشعرة بشدة حاجتهم ووشك انتهاء مؤنتهم، ووشك حدوث ضياع الأهل والولد بسبب امتناع أبيهم عن إرسال أخيهم، وفيه ما فيه من تهويل أمر المسؤولية؛ لذا رأيت صداه في قلب يعقوب ـــ عليه السلام ـــ إذ جاءت الآية التالية كاشفة عن ليونته ووقوعه تحت أسر المراودة (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) (يوسف/٦٦) فقد لان قلبه ووافق على

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/١٣.

(٢) إراشاد العقل السليم ٢٨٩/٤.

إرسال ابنه، مع أن التركيب موضوع البحث لم يرد فيه طلب أخيهم من أبيهم كسننتهم في التركيب الأول ، لم لا ؟ وقد أثمرت الملاينة، وأينعت الملاطفة ؟ من يوسف لهم ومنهم لأبيهم .

٤ـ قال ـ تعالى ـ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: ٨٨]

من عطاء النظم الكريم

جاء النظم في سياق عودتهم إلى أخيهم يوسف من بعد ما أخذ منهم أخاهم بنيامين بالحيلة، فعاودوا المجيئ تلبية لرغبة أبيهم، وقد جاءت الجملة بالفاء دلالة على أن اشتداد القحط جعلهم يسرعون الكرّة للميرة كما قال البقاعي [١] وجاءت الجملة مسوقة بـــ(لما) الزمانية لانبناء الأحداث على الزمن شأن القصة(فلما دخلوا عليه) وجاء كلامهم مفعما باستعطاف العزيز، وذلك في الافتتاح بالنداء ومناداته بصفته الدالة على القوة والقهر، ثم تثنية ذلك بالكشف عن رقة حالهم، وحال من يعولونهم (مسنا وأهلنا الضر) ثم ثلّثوا بما يكشف عن رغبتهم الشديدة في دفع الضر عنهم وعن أهليهم،

---

(١) نظم الدرر ٩٢/٤.

فقد جاؤوا ببضاعة مزجاة [1] أي: رديئة لا يرغب صاحبها فيها مبالغة في إظهار رقة حالهم استمطارا لكرمه، قال البقاعي: "ولما تلطفوا بتعظيمه ترققوا بقولهم (مسنا) "[2]

وبعد هذه التهيئة ساقوا مطلبهم الأول(فأوف لنا الكيل) وفيه إشكال قال العلماء : فإن قيل إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلم عدلوا إلى الشكوى، وطلبوا إيفاء الكيل ؟ أجيب : بأن المتحسس يتوصل إلى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد وشدة الحاجة مما يرقق القلب، فقالوا نختبره بهذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا المقصود وإلا شكونا[3] وأوجز منه ماقيل : إنما لم يبدأوا بما أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو [4] وقد قدموا المجرور

---

(1) مزجاة : ناقصة غير تامة ، وإنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ، ومزجاة أيضا : قليلة أو مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها ، ينظر: الكشاف ٣٤٠/٢، مفاتيح الغيب ١٣٩/١٧، فتح القدير ٥٠/٣، الفتوحات الإلهية ٤٧٨/٢، روح المعاني ٤٤/٧، التحرير والتنوير ٤٦/١٣.

(2) نظم الدرر ٩٢/٤

(3) ينظر : الفتوحات الإلهية ٤٧٨/٢، زادة على البيضاوي ٩٨/٣.

(4) ينظر : إرشاد العقل السليم ٣٠٢/٤، روح المعاني ٤٤/٧.

على المفعول به (لنا) زيادة عناية بحالهم، ثم أخروا طلب أخيهم من العزيز؛ تقديما لما لا ريب في تحققه على ما فيه ريب لأنه أخذ عقوبة، واستنزال الغفران من المعاقِب أصعب من طلب الكرم منه؛ لذا ساقه النظم الكريم بأسلوب الاستمطار (وتصدق علينا) استمطارا لعفوه واحتلابا لسحائب كرمه، انبناء على ما اعتادوه من كرمه الفائض، وفي الأسلوب " تعريض بإطلاق أخيهم" [1] ثم ختموا كلامهم بما يلهبه ــ عليه السلام ــ إلى تحقيق مطلوبهم (إن الله يجزي المتصدقين) والجملة " تعليل لاستدعائهم التصدق عليهم" [2] وكل ذلك مما يحمل المخاطب على تحقيق مطلوبهم ، وكانت البلاغة سبيلهم إلى تحقيق هذا المطلوب.

([1]) التحرير والتنوير ١٣/٤٧.

([2])التحرير والتنوير ١٣/٤٧.

الفصل الثالث

بلاغة النظم القرآني في حديثه عن ميزان الأعمال يوم القيامة

جزاء من ثقلت موازينه وعاقبة من خفت موازينه

ورد الحديث عن ذلك في ثلاث سور (الأعراف ــ المؤمنون ــ القارعة) وقد تقاربت الآيات نظما في السور الثلاث، وسورة القارعة هي أول السور نزولا تليها الأعراف، وهي التاسعة والثلاثون نزولا، أما المؤمنون فهي الرابعة والسبعون نزولا، وكلهن سور مكيات .

أولا : آيتا الأعراف

قال ــ تعالى ــ ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾ [الأعراف: ٨-٩]

الآية في نور السياق

وردت الآية الكريمة في سورة الأعراف، وهي مكية، وهي من أوائل السور نزولا، وفي تراكيبها من التهديد والوعيد ما يلائم حال النزول، وما يلائم المقصود الذي تحدرت في سياقه الآية الكريمة؛ تحقيقا له، فمقصودها " إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية (الأنعام) من التوحيد والاجتماع على الخير"[١] ومن لطائف المناسبة وعلائق السياق أن الآيتين موضوع البحث تناديان على آية الأنعام (وأوفوا الكيل والميزان . . .) (الأنعام/١٥٢) وقوله (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) (الأنعام/١٦٠) نبه إليه البقاعي [٢] والآيتان الكريمتان مركبتان من جملة تفرع عليها جملتان شرطيتان .

---

(١) نظم الدرر ٣/٣

(٢) السابق ٣/٩.

من عطاء النظم الكريم

التركيب الأول (وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ)

الوزن مبتدأ وخبره الحق [1] وفي التركيب وجوه أخر من الإعراب [2] وقد عطف هذا التركيب على قوله ـ تعالى ـ (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) (الأعراف/٦) والتركيب مكون من مسند إليه ومسند وظرف زمان، وقد وقع المسند إليه مقدما ومعرفا باللام وهي هنا للعهد العلمي، ووقع المسند معرفا باللام ففي الأسلوب قصر طريقه تعريف الطرفين، وفائدته التأكيد على عدل الله المطلق، وهو قصر حقيقي تحقيقي قاله البقاعي [3]

وقد قدم الظرف على المسند مسارعة بالترهيب من هذا اليوم الذي يجري فيه الوزن، وفي الكلام إيجاز بالحذف دل عليه التنوين في(إذ) وهو عوض عن جمل تقديرها : يوم

---

(1) ينظر : فتح القدير ١٩٠/٢ ، الفتوحات الإلهية ١٢٣/٢، زادة على البيضاوي ٢٢٨/٢، روح المعاني ٣٢٤/٤.

(2) (يمكن أن يكون الوزن مبتدأ ، ويومئذ خبره، والحق صفة ويترتب على ذلك الفصل بين الصفة والموصوف ، وقيل غير ذلك وفيها تكلف) ينظر : الكشاف ٦٧/٢، زادة على البيضاوي ٢٢٨/٢، الفتوحات الإلهية ١٢٢/٢.

(3) نظم الدرر ٩/٣.

نسأل الذين أرسل إليهم ونسأل المرسلين ونقص. . وفي الحذف ربط للتراكيب بمعاقد السياق السابقة، وإيجاز ومسارعة إلى الوعيد والتهديد.

وقد اختلف علماء الأمة في كيفية الوزن وما يوزن على قولين :

الأول : أن الوزن والميزان حقيقة، وأن الذي يوزن الأعمال ، وأنها وإن كانت أعراضا إلا أن الله يقلبها أجساما، ولهم من الأدلة من الكتاب والسنة ما ينصر مذهبهم [1] وهذا المذهب هو الذي أشايعه لعدم تعذر حمل اللفظ على ظاهره، ولاختلاف الأحوال يوم القيامة عما نحن فيه من حال.

الثاني: أن الميزان والوزن مجاز عن العدل والقضاء الحق، وحجتهم أن الأعمال أعراض، والذي يوزن عنهم هي الصحائف، وأوردوا من السنة ما يؤيد كلامهم [2]

([1]) ينظر : جامع البيان ٩١/٨، تفسير ابن كثير ٢٠٢/٢، أنوار التنزيل ٣٤٢/١، مفاتيح الغيب ٦٦٣/١٢، نظم الدرر ٩/٣، إرشاد العقل السليم ٢١١،٢١٠/٣، فتح القدير ١٩٠/٢، الفتوحات الإلهية ١٢٣،١٢٢/٢، روح المعاني ٣٢٤/٤، التحرير والتنوير ٣٠،٢٩./٨.

([2])ينظر : جامع البيان ٩١/٨، أنوار التنزيل ٣٤٢/١، مفاتيح الغيب ٦٦٣/١٢، إرشاد العقل السليم ٢١١،٢١٠/٣، فتح القدير ١٩٠/٢، زادة على البيضاوي

التركيب الثاني :(فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ)

الفاء فاء التفريع على ما مضى، وقد بنيت الجملة بأسلوب الشرط ، وقد ألمع فعل الشرط إلى جواب الشرط حيث وقع بالفعل(ثقلت) وفيه" كناية عن كونه بمحل الرضا من الله ــ تعالى ــ لكثرة حسناته؛ لأن ثقل الميزان يستلزم ثقل الموزون . . . وقد شاع عند العرب الكناية عن الفضل والشرف، وأصالة الرأي بالوزن ونحوه، وبضد ذلك يقال : فلان لا يقام له وزن [١] وتفوت هذه اللطيفة لو قيل: فمن كثرت حسناته، والذين أجروا الوزن على المجاز جعلوا (ثقلت.. .) ترشيحا للاستعارة [٢]

وقد جاء جواب الشرط جملة اسمية معرفة الطرفين قصرا للمسند على المسند إليه؛ إلماعا إلى العناية بتحقيق الشرط لتحقق الجزاء، والملحوظ هنا أن الجزاء وقع وصفا؛

٢/٢٢٨،الفتوحات الإلهية ٢/١٢٢،١٢٣، روح المعاني ٤/٣٢٤، التحرير والتنوير ٨/٢٩،٣٠.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٣.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٨/٣١.

لأن الفلاح ليس جزاء، وإنما صفة يتحقق بها الجزاء، وفي ذلك إلماع إلى سعة هذا الجزاء، فمن الممكن أن يكون الجنة، أو رضا الله إلى آخره، كما أن في هذا التركيب؛ إلماعا إلى صفة الطرف المقابل، وقد تآزرت هيئات تركيب جملة جزاء الشرط على بيان رفعة شأن هذا الصنف، وذلك من تعريف المسند إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد ؛ تعظيما لقدرهم؛ وبيانا لعلو شأنهم، وتأكد جزاؤهم بالقصر الذي طريقه تعريف الطرفين، وازداد تأكيد الجزاء بضمير الفصل، وقد قالوا: " وهم إما ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أو مبتدأ خبره المفلحون، والجملة: خبر لأولئك" [1] وقد جاءت الجملة اسمية دلالة على ثبوت أجرهم واستمراره، وفي كل ذلك حث على السعي الحثيث نحو ثقل الميزان.

التركيب الثالث(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ)

جاءت هذه الجملة على نهج الجملة المقابلة، وفي التعبير بفعل الشرط **(خفت)** إلماع إلى السخط وعدم الرضا

([1]) ينظر : إرشاد العقل السليم ٣/٢١١، روح المعاني ٤/٣٢٥.

على من يكون كذلك ، وقد جاء جواب الشرط على نهج جواب الشرط الماضي ، وعرف المسند إليه باسم الإشارة؛ تحقيرا لهم وإبعادا لمكانتهم ، والمسند هنا عرف باسم الموصول لما في جملة الصلة من التشنيع عليهم، وتحسيرهم وتنديمهم، فقد أسند الخسار إلى أنفسهم، وقيد الفعل بالجار والمجرور (بما كانوا بآياتنا يظلمون) وفيه تحسير لهم، وتأكيد على استحقاقهم العذاب " وتقديمه للاهتمام" (١) وهو أفضل من أن يقال : " التقديم لرعاية الفواصل" (٢) وقد جمع بين صيغتي الماضي (كانوا) والمستقبل (يظلمون) "للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا، أي: فأولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم المستمر بآياتنا ظالمين" (٣)

وقد تكلم العلماء على التعبير عن الميزان بالجمع (موازينه) فمنهم من حمله على الحقيقة، وأن تعدده بحسب أنواع الأعمال، ومنهم من رأى أنه تعبير عن الواحد بلفظ

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢/٨.

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ٢١٢/٣، الفتوحات الإلهية ١٢٣/٢، روح المعاني ٣٢٦/٤.

(٣) إرشاد العقل السليم ٢١٢/٣.

الجمع؛ تعظيما، أو أنه أراد بالميزان الموزون، وأنــه عبــر بالجمع لاختلاف الموزونات [1]

([1]) ينظر : الكشاف ٢/٦٨، مفاتيح الغيب ١٢/٦٦٥، أنوار التنزيل ١/٣٤٢، فتح القدير ٢/١٩١، الفتوحات الإلهية ٢/١٢٣، روح المعاني ٤/٣٢٥.

ثانيا : المؤمنون: قال ـــ تعالى ـــ ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]

الآيتان الكريمتان في نور السياق

وقعت الآيتان الكريمتان في سورة المؤمنون وهي مكية، وقد وقع حديث القرآن في السورة عن ميزان الأعمال تفريعا على قوله ـــ تعالى ـــ (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (المؤمنون/١٠١) وقد وقعت الآيتان الكريمتان في سياق تحقيق مقصود سورة المؤمنين وهو " اختصاص المؤمنين بالفلاح" [١] وبيان أنهم ذو ميزان ثقيل، والآيتان تناديان على مطلع السورة الكريمة (قد أفلح المؤمنون)(المؤمنون/١) وإن كان المطلع قد نبه على فلاحهم، ثم تحدر السياق في شرح أسباب فلاحهم ،فلقد نهضت الآيتان موضوع البحث بالكشف عن تحقق الفلاح

---

(١) نظم الدرر٥/ ١٨٢.

وأثره، وتأكد ذلك بذكر حال أضدادهم وحالهم من الخسار ومآلهم من العذاب.

من عطاء النظم الكريم

تراكيب الآيتين متقاربة مع تراكيب آيتي الأعرف، وسنتناول بالتحليل في هاتين الآيتين ما اختصتا به .

بلاغة النظم في قوله ــ تعالى (فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

تركيب الآيتين متقارب مع تركيب آيتي الأعراف، وقد اختصت الأعراف بهذا القيد (بما كانوا بآياتنا يظلمون) فتوفرت العناية هناك على الكشف عن سبب الخسار؛ تناسبا مع مقصد سورة الأعراف الذي هو الإنذار وهنا اختصت المؤمنون بهذا القيد (في جهنم خالدون) تناسبا مع مقصد السورة الكاشف عن فلاح المؤمنين وخسار أضدادهم ،فكانت العناية بالمآل هنا أنسب بمقصود السورة الكريمة ، وقد أتبع هذا القيد بقيود أخر (تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون)(المؤمنون/١٠٤) وتحدر الحديث بيانا لحال الخاسرين في جهنم وكل ذلك مما يدل بالمفهوم على حال المؤمنين وماهم فيه من فلاح وفوز، وقوله (في جهنم

خالدون) بدل من خسروا أنفسهم أو خبر بعد خبر(أولئك)أو خبر مبتدأ محذوف [1]

ولكل وجه من هذه الوجوه لطائف بلاغية فعلى كونه بدلا يكون قيدا، والمراد منه إبداء العلاقة القوية بين فعلهم ومآلهم وأنهما كالشئ الواحد، وعلى كونه خبرا بعد خبر، يكون المراد الكشف عن أن الخسار جزاء ومآلهم جزاء، وفي ذلك بيان بليغ عن أن الوصف الخبيث يعد جزاء شأنه شأن العقاب وأنه ضرب من العقاب، وفي كونه خبرا لمبتدأ محذوف تقديره (هم) تأكيد على عذابهم وقبحهم بإسناد إيقاع العذاب إليهم بعد إسناد الخسار إليهم، والجملة حينئذ تكون وافعة من سابقتها موقع التأكيد المعنوي، ويكون بينها وبين سابقتها كمال اتصال، ويمكن أن يكون بينهما شبه كمال اتصال، وتكون الجملة مستأنفة كأنها جاءت جوابا عن سؤال خاص ما مآلهم فقيل : هم في جهنم . . .

---

(1) ينظر : الكشاف ٤٣/٣، مفاتيح الغيب ٤١٠/٢٢، أنوار التنزيل ١١٥/٢، إرشاد العقل السليم ١٥١/٦، فتح القدير ٤٩٩/٣ ، روح المعاني ٢٦٥/٩.

ثالثا: القارعة : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ ﴾ **[القارعة: ٦-٩]**

الآية الكريمة في نور السياق

الآيات من سورة القارعة، وهي من أوائل ما نزل بمكة؛ لذا نجد صدى تراكيبها يتصاعد في الترهيب والتخويف تناسبا مع حال النزول وكل حال يشبهه، كما أن الآيات جاءت ملائمة لمقصود السورة، وجارية في سياق تحقيقه ومقصود السورة" إيضاح يوم الدين بتصوير ثواني أحواله في مبدئه ومآله وتقسيم الناس فيه إلى ناج وهالك" [١] ويكشف البقاعي عن مناسبة الآيات لما قبلها، فيقول " ولما كان اليوم إنما يوصف لأجل ما يقع فيه سبب عن ذلك قوله ــ مفصلا لهم ــ (فأما من ثقلت . . .) [٢] أي: أن ما ذكر من أحوال اليوم بمثابة التمهيد في جريان المعنى في السورة، وهذه الحلقة من المعنى الجاري في السورة تمثل خاتمة القارعة وأثرها، وقد

---

(١) نظم الدرر ٨/ ٥١٣.

(٢)السابق ٥١٤/٨.

ألمع ابن عاشور أيضا إلى أن هذه الآيات تفصيل للناس في قوله (يوم يكون الناس...) وبين أنه عبر بالناس ليشمل أهل السعادة وأهل الشقاء" [١]

وألمح شيئا آخر أنه ذكر الميزان على وجه المقابلة، وتأمل هذا الترتيب، ثقل الميزان جاء الحديث عنه قبل الحديث عن خفة الميزان ألا ترى أنه الترتيب ذاته في ثقل الناس ثم خفتهم، وذلك بتشبيههم بالفراش المبثوث، وثقل الجبال وخفتها (كالعهن المنفوش) وأظن أن هذا يومئ إلى سمت ترتيب المعاني في السورة الكريمة، وأن معانيها تتجه إلى هدف محدود هو إظهار تأثير القارعة [٢]

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٥١٣/٣٠.

(٢) ينظر: المقام والمقتضى في السور الخالية من السماء الحسنى ١٥٩، د/ إبراهيم صلاح الهدهد ، نشر المؤلف ٢٠٠١م.

سبق الحديث عن فعل الشرط في سورة الأعراف.

ثواب من ثقلت موازينه ، لطائف وأسرار .

اشتمل جواب الشرط على مجاز عقلي كما ذكر الأئمة[1] والمجاز العقلي يصور نضارة هذا العيش " ورضى العيشة، أي: النعمة يعني أنها دائمة باقية تألف صاحبها ويألفها وتحبه ويحبها" [2] وكل ذلك من إسناد الشئ إلى غير ما هو له، فقد صارت العيشة هي التي تترضى صاحبها بدل أن يترضاها صاحبها، وأصبح المرضي راضيا، كل ذلك يدل على عظم الجزاء وغاية القبول عند الله .

وقد استنبط البقاعي ــ رحمه الله ــ لطيفة وراء إلحاق الهاء الدالة على الوحدة في عيشة، فقال: " ولعله ألحق الهاء الدالة على الوحدة والمراد العيش ليفهم أنها على حالة واحدة في الصفاء واللذة، وليست ذات ألوان" [3] وربما يؤيده ما

---

(1) ينظر: بحر العلوم ٥٠٥/٣، الجامع لأحكام القرآن ٧٢٥٦/١٠، إرشاد العقل السليم ١٩٤/٩، الشهاب على البيضاوي ٣٩٣/٨، زادة على البيضاوي ٦٨٩/٤، الفتوحات الإلهية ٥٧٩/٤، روح المعاني ٤٤٩/١٥.

(2) خصائص التراكيب ١٠٦، د/ محمد أبو موسى .

(3) نظم الدرر ٥١٤/٨.

ذكرته المعاجم من أن العيش معناه الحياة وما تكون به من مطعم ومشرب إلى آخره، أما العيشة : فهي حالة الإنسان في حياته ، فيقال : عاش فلان عيشة صدق وعيشة سوء إلى آخر ذلك، فيكون ذكر العيشة دالا على حال من ثقلت موازينه في الآخرة، وأنها فوق أن تكون عيشة رضى ، ويكون إجراء الكلام على النسبة هو الوجه حينئذ، ولذلك تأول العلماء (عيشة راضية) بأنها ذات رضا" [١] كقولهم لابن وتامر .

ومنهم من جعل المجاز لغويا فقد استعار الرضا للين والانقياد [٢] وهكذا جاء التعبير بهذا الثراء الذي يحتمل كل هذه التأويلات، ومجمل القول أن من ثقلت موازينه سيلقى جزاء يجاوز الخيال والمعقول، كما جاء في الحديث أعددت لعبادي ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [٣] وهذا واضح في الإسناد إلى ما لا يعقل، ومعنى هذا

([١]) ينظر : مفاتيح الغيب ٦٠٤/٣٢، أنوار التنزيل ٥٧٣/٢.

([٢]) ينظر : فتح القدير ٥/ ٤٨٦،٤٨٧، زادة على البيضاوي ٦٨٩/٤، غرائب القرآن ١٥٣/٣٠.

([٣]) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب مال جاء في صفة الجنة ومسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة السجدة، .

أنها حياة خارجة عن الإلف والعادة تحاول أن تترضاه وتلين له وتنقاد إليه، ولا يخفى أن جواب الشرط وقع جملة اسمية دلالة على الثبوت والاستمرار ،وفي كل ذلك بشارة للقلة المؤمنة حال النزول، وجواب الشرط من خصائص سورة القارعة.

عاقبة من خفت موازينه دقائق وأسرار

هذا التركيب من خصائص سورة القارعة، وقد تكاثرت تأويلات العلماء على نحو مما يلي :

١ــ أن (هاوية) من أسماء النار سميت بها لغاية عمقها، وبعد مهواها وعبر عن المأوى بالأم لأن أهلها يأوون إليها كما يأوي الولد إلى أمه، فهو من قبيل زيد أسد، شبهت النار للعصاة بالأم لكونها تهوي بهم إلى نفسها كما تضم الأم الأولاد إليها، وعليه فيمكن أن يكون في الكلام تهكم بهم، ويكون ذلك من باب التشبيه المقلوب، والأصل الهاوية أمه، لكنه جاء على القلب ، وهذا وارد أيضا على تأويل الهاوية بالباب الأسفل من النار .

٢ــ أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: أم رأسه، والمعنى: فأم رأسه هاوية في قعر جهنم، لأنه يطرح فيها

منكوسا، وهذا وجه أيضا في الكشف عن إهانته وإذلاله، فلم يكف كونه في عذاب دائم، بل هو مستنقع الإهانة على أقبح هيئة أيضا، وهو تأويل ناظر إلى معنى القارعة.

٣ــ أن الكلام على سبيل الدعاء، وهو معروف في كلام العرب، وعليه يكون استعمال الأم حقيقة لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر؛ لشدة محبتها ابنها، فهي أشد سرورا بسروره وأشد حزنا بما يحزنه، وقد ذكروا أن أعرابيا صلى وراء إمام فقرأ الإمام (واتخذ الله إبراهيم خليلا) فقال الأعرابي : لقد قرت عين أم إبراهيم ويقولون في الشر : هوت أمه [١]

وقد أشار البقاعي إلى أن في هذه الآية احتباكا مع ما قبلها حيث، قال : "والآية من الاحتباك ذكر العيشة أولا دليلا على حذفها ثانيا، وذكر الأم ثانيا دليلا على حذفها [٢] أي : أن

---

(١) ينظر : جامع البيان ١٨٢/٣٠، الكشاف ٢٨٠/٤، مفاتيح الغيب ٦٠٤/٣٢، الجامع لأحكام القرآن ٧٢٥٧/١٠، نظم الدرر ٥١٥/٨، تفسير ابن كثير ٥٤٣/٤، أنوار التنزيل ٥٧٣/٢، إرشاد العقل السليم ١٩٤/٩، غرائب القرآن ٥٣/٣٠، الشهاب على البيضاوي ٦٨٩/٤، فتح القدير ٤٨٧/٥، تفسير جزء عم ١١٢، روح المعاني ٤٤٩/١٥، التحرير والتنوير ٥١٣/٣٠:٥١٥.

(٢) نظم الدرر ٥١٥/٨.

تقدير المعنى : فأمه في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه في عيشة مبغضة، والآيات مبنية على ترغيب المؤمنين بذكر الثواب، وترهيب الكافرين بذكر العقاب، فذكر في كل طرف مايفي بغرضه، فذكر في الأول ما هو ألصق بالترغيب (عيشة راضية) وذكر في الطرف الثاني (فأمه هاوية) إمعانا في الترهيب إذ مادام المأوى نفسه كذلك فالآوي إليه أشد عذابا، وحذف عيشة مبغضة؛ إشارة إلى أنها من سوئها لا تستحق أن تسمى عيشة"[1]

نظرة إلى مواطن الاتفاق والاختلاف في المواضع الثلاثة ـ لطائف وأسرار.

نلحظ هنا أن الآيات الثلاثة اتفقت فيما يلى : ـ

أولا : أنها بنيت بأسلوب الشرط، وفيه ما فيه من إبراز الأمرين فى صورة الارتباط اللازم بين المقدمة والنتيجة، ولو تدبرنا البيان القرآنى لرأينا أن النزوع إلى هذا الأسلوب يكون حال الجدل غالبا .

([1]) ينظر : الاحتباك في الذكر الحكيم ٢٩٤ د/ إبراهيم صلاح الهدهد ، نشر المؤلف ١٩٩٩م

ثانيا : أن كلمة (ميزان) جاءت مجموعــة لتناســب تنــوع الأعمال .

ثالثا : أن التركيب فى فعل الشرط متحد فى الآيــات الثلاثــة (فمن ثقلت موازينه . . .) (ومن خفــت موازينــه . . .) وقد وقع الاختلاف فيما يلى : ــ

أولا: جواب الشرط فى سورتى الأعراف والمؤمنون متحد فى بنائه ومعناه (فأولئك هم المفلحون) وفــى ســورة القارعــة اختلف جواب الشرط (فهو فى عيشة راضية) ولنا أن نبصر أن هذا الاختلاف كاشف عن مجئ الجواب متفقا مع جريــان المعنى فى سورة القارعة ، وذلك أن سورة القارعة اجتــزأت من كل شئ أوجزه، كحال الناس عند النشر ، وحــال الجبــال عند التدمير، ومعلوم أن العيشة الراضــية ثمــرة الفــلاح ، فالتركيب هنا بنى على الإيجاز كأشباهه فى السورة الكريمــة، حيث إننا لو نظرنا لوجدنا أن ثقل الميزان يؤدى إلى الفــلاح، والفلاح يؤدى إلى العيشة الراضية ، و الإيجاز هــو الملائــم لمعنى السورة، وهيئة جريانه فيها .

وشئ آخر، هو أن هذا التركيب لاءم حال المخاطبين عند النزول، فهم حين اشتطوا فى الإيذاء لرسول الله ـ ﷺ ـ و للمؤمنين، ولمن ناصره من المشركين استخدموا التضييق فى العيشة وسيلة لذلك، فخاطبهم القرآن الحكيم بجنس عملهم ، لأن الحال دلت على أنهم لا يفقهون هذه اللغة، ولو قال هنا، وفى ذلك الوقت : فأولئك هم المفلحون ، لما طابق الحال، ولما لاءم السياق، لأنهم فعلوا ما فعلوا وهم لا يظنون أنهم خاسرون، بل هم يظنون أنهم هم المفلحون بما يعملون .

ثانيا : آيات القارعة اختصت بتصديرها بأما التفصيلية، أما السورتان الأخريان، فقد جاء التفصيل فيهما بدلالة السياق، لا بدلالة نصية مثل سورة القارعة، وهو ما يؤدى إلى الدلالة على مزيد ارتباط بين الفريقين؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى على ما هو معروف ، وهو الملائم حال المخاطبين عند النزول، وحال اتساق المعنى فى السورة، وكأن القرآن العظيم يقول : بالرغم من هذا التفتيت والتشتيت الذى رأيته فى حالى الناس والجبال فإن الأمر سينتهى إلى تقسيم الناس إلى فريقين لا ثالث لهما .

ثالثا : أن عقاب من خفت موازينه مختلف فى كل سورة عن نظيرتها وجه اختلاف ، ففى الأعراف والمؤمنون وصف عاقبتهم بالخسران (فأولئك الذين خسروا أنفسهم . . .) و اتفقت السورتان فى وصف العاقبة إلى هذا الحد، ثم اختلفتا بعد ذلك، فسورة الأعراف عنيت بذكر سبب الخسران (بما كانوا بآياتنا يظلمون) تناسبا مع مطلعها (لتنذر به وذكرى للمؤمنين) (الأعراف / ٢) وسورة المؤمنون عنيت بما هو مترتب على خسرانهم (فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) وكل وصف يذكر فى الثمرة المترتبة على الخسران ، هو دلالة بالمفهوم على عظم قدر المفلحين؛ تناسبا مع مطلع السورة الكريمة الذى عنى ببيان فلاح المؤمنين .

أما سورة القارعة فقد جاء الحديث فيها عن عاقبة من خفت موازينه مختلفا عما فى السورتين (فأمه هاوية و ما أدراك ما هيه نار حامية) وقوله: (فأمه هاوية) من خصائص السورة الكريمة ؛ تناسبا مع القرع ، فالقرع يكون أشد إهانة حين ينال من الرأس على تأويل (أمه) بالرأس ـ

كما سيأتى بيانه ــ وذلك أردع للمخاطبين حال النــزول ، و تأمل لطائف المناسبة فى (هاوية) و(الجبال) .

وقوله : (و ما أدراك مــا هيــه) دل علــى إيجــاز بالحذف هو و ما بعده، فالهوىُّ لا يكون إلا من علو ، و كــأن الكلام : فأمه هاوية فى النار . . . هى نار حامية ، وقولــه : (و ما أدراك ما هيه) من التراكيــب المختــصة بالــسورة الكريمة؛ تناسبا مــع تركيــب القارعــة (و مــا أدراك مــا القارعة) وهذا التركيب هو الملائم حــال المخــاطبين عنــد النزول ، فوق ملاءمته السياق ، لأن معناه أن هذه النار فــوق طاقة البشر فى الوصف ، فكيف بمن يهوى فيها ؟ ! فكأن هذا العقاب هو أجمع ما فى القرآن حديثا عن الميزان و ما يترتب عليه، ونلحظ أن الحديث جاء فى هذه السورة، ملاءمة للحال، ومطابقة للمقام، كما جاء في السور الأخرى كذلك أيضا[1] .

([1]) ينظر : المقام والمقتضى في السور الخالية من الأسماء الحسنى ١٥٩ وما بعدها د/إبراهيم صلاح الهدهد نشر المؤلف ٢٠٠١م.

٤ــ **قال ــ تعالى ــ** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ﴾ **[الكهف: ١٠٥]**

الآية الكريمة في نور السياق

الآية الكريمة في سورة الكهف، وهي سورة مكية ، فهي التاسعة والستون نزولا، والآية الكريمة وما قبلها وما بعدها تهديد ووعيد للكافرين، وهو مما يلائم حال النزول وكل حال يشبهه عبر الزمان وهو مما يلائم مقصود السورة أيضا، ومقصودها " وصف الكتاب بأنه قيم لكونه زاجرا لهم عن الشريك" [١] وقد جاءت الآية الكريمة واصفة الأخسرين أعمالا متوفرة على بيان عاقبتهم .

من عطاء النظم الكريم

الآية " مستأنفة مسوقة لتكميل الخسران وبيان سببه"[٢] وذكر ابن عاشور أن الجملة استئناف بياني بعد قوله (هل

([١]) نظم الدرر ٤/٤١٤.

([٢]) ينظر : فتح القدير ٣/٣١٦، إرشاد العقل السليم ٥/٢٤٩، روح المعاني ٨/٣٦٨.

ننبئكم بالأخسرين أعمالا)"[1] وقد عرف المسند إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد لتمييزه أكمل تمييز [2] وللتنبيه على أنهم أجدر بالخبر المذكور بعد ذلك، وقد عرف المسند بالموصولية لما في ذكر الصلة من التأكيد على استحقاقهم الجزاء المترتب على الصلة، وفي تقييد الفعل(كفروا) بقوله (بآيات ربهم) تشنيع عليهم ، وذلك من إضافة الآيات إلى الربوبية، التي كانت تستوجب الشكر لا الكفر؛ لذا لم تضف الآيات إلى لفظ الجلالة؛ وقد قالوا "التعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر" [3] وقد عطف على هذا القيد قيد آخر (ولقائه) وفيه من إثبات فجورهم وعدم اكتراثهم بما يؤكد استحقاقهم للجزاء المذكور بعد ذلك ما فيه، وفي كل ذلك إيماء إلى وجه بناء الخبر، إذ يكون الخبر لمن كانت هذه شناعاته وتلك صفاته، والأكثرون على أن (لقائه) كناية عن البعث وما يتبعه، والذين أجروه على الحقيقة قدروا محذوفا والتقدير لقاء عذابه [4] والمراد إثبات فجورهم على التأويلين،

---

(1) التحرير والتنوير ١٦/٤٧.

(2) التحرير والتنوير ١٦/٤٧ .

(3) روح المعاني ٨/٣٦٨.

(4) ينظر : مفاتيح الغيب ٢٠/٣٨٧، روح المعاني ٨/٣٦٨.

وقد عطف على ما مضى قوله (فحبطت أعمالهم) بفاء العاقبة إنباء بسرعة إزهاق عملهم وعدم نفعه وسرعه بواره، وفي إسناد الحبوط إلى الأعمال مبالغة في الكشف عن ذهابها بالكلية.

ثم جاءت فاء العاقبة الأخرى (فلانقيم لهم . . .) دلالة على تلاحق الخسار، وتأمل : لم يكن النظم فلا نزن لهم شيئا، إنما جاء كذلك مبالغة في بيان عدم الالتفات إلى أعمالهم بأي وجه، بل الأمر جاوز الأعمال إلى أصحابها، فليس لهم وزن يقام أصلا؛ لذا أخر المفعول به وقدم الجار والمجرور والظرف؛ تناسبا مع بيان إهمالهم بالكلية، وعدم الالتفات إليهم .

ويؤازر ذلك الالتفات في قوله ــ تعالى ــ (فلا نقيم لهم) فمقتضى الظاهر أن يقال: فلا يقام لهم [1] وفي التوجه بالخطاب في نفي إقامة أي ميزان لهم مجابهة بما يكرهون، وقد أجرى العلماء هذا التركيب (فلانقيم لهم يوم القيامة وزنا) على الكناية ، أي: الكناية عن الصفة وهي ازدراؤهم وعدم الاعتداد بهم، وهذا معنى قولهم : أي : لايكون لهم عندنا قدر

---

(1) التحرير والتنوير ٤٨/١٦.

ولا يعبأ بهم " [1] ويمكن أن يكون ذلك من قبيل الاستعارة بالكناية، حيث شبهوا بالمحقرات في عدم الاعتداد، ثم حذف المستعار منه، وأثبت لهم عدم الوزن تخييلا [2] والحامل للعلماء على هذا التأويل أن الكفار توزن أعمالهم على التحقيق، والذين حملوه على الحقيقة تأولوا نعتا محذوفا، أي: لانقيم لهم وزنا نافعا [3] ويكون في حذف النعت إعلان على الغضب الشديد أو يكون في الحذف إلماع إلى أنهم ليسوا أحرياء بذكر النفع معهم ولو نفيا.

---

(1) ينظر : جامع البيان ٢٩/١٦، الكشاف ٥٠٠/٢، مفاتيح الغيب ٣٨٧/٢٠، الجامع لأحكام القرآن ٤١٠٦/٦، أنوار التنزيل ٢٧/٢، فتح القدير ٣١٦/٣.

(2)التحرير والتنوير ٤٨/١٦.

(3) الفتوحات الإلهية ٤٩/٣.

٥ــ قال ــ تعالى ــ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

[الأنبياء: ٤٧]

الآية الكريمة في نور السياق

الآية الكريمة وردت في سورة الأنبياء وهي الثالثة والسبعون نزولا، وفي الآية من الترهيب والوعيد والتهديد ما يلائم حال النزول في الفترة المكية ، كما يلائم كل حال يشبهه عبر الزمان، وقد جاءت الآية في سياق تحقيق مقصود سورة الأنبياء الذي تتظاهر على بيانه تراكيبها، ومقصودها: " الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت ، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير " [١] والميزان هو آلة الحساب، وبه يتحقق العدل .

من عطاء النظم الكريم

عطفت الآية بالواو على جملة (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) (الأنبياء/٤٦) لمناسبة قولهم (إنا كنا ظالمين)

---

(١) نظم الدرر ٦٣/٥

ولبيان أنهم مجازون على جميع ما أسلفوه من الكفر . . . [١]

وقد جوز ابن عاشور أيضا أن تكون الواو للحال من قوله ــ تعالى (ربك) أو أن تكون الواو اعتراضية [٢] وقد سبق الحديث عن الموازين أحقيقة هي أم مجاز، وقد وصف الميزان بــ (القسط) وهو مصدر "للمبالغة" [٣] وهذه الصفة تؤكد على العدل التام ، قال البقاعي : ولما كانت الموازين آلة العدل وصفها به مبالغة " [٤] وقد قيد الفعل بالجار والمجرور (ليوم القيامة) وقد أوحت هذه اللام بأن العدل الذي آلته الميزان هو عمود يوم القيامة، والمراد منها؛ لذا جاءت اللام وفيه من الترهيب من يوم القيامة ما فيه، وكان هذا المعنى يفوت لو قيل (يوم القيامة) وقد ذكر الأئمة أن اللام للتعليل، وكونها للتعليل أعلى من كونها بمعنى في ، كما ذهب إليه بعضهم، أو أن اللام داخلة على محذوف تقديره أهله [٥]

---

(١) التحرير والتنوير ٨٠/١٧

(٢) السابق ٨١/١٧.

(٣) الكشاف ٥٧٤/٢، أنوار التنزيل ٧٤/٢.

(٤) نظم الدرر ٨٧/٥.

(٥) ينظر : الكشاف ٥٧٤/٢، أنوار التنزيل ٧٤/٢، فتح القدير ٤١١/٣، نظم الدرر ٨٧/٥، روح المعاني ٥٣/٩، التحرير والتنوير ٨٤/١٧.

وقد عطف على التركيب السابق بالفاء قوله (فلا تظلم نفس شيئا) وفيه تأكيد وصف الموازين بالقسط، وعبر بالنفس لأنها أشمل وأعم، ووقع (شيئا) منكرا للتقليل، أي : أنه لا ظلم على الإطلاق، ويؤكد ذلك وقوعه نكرة في سياق نفي ، وقد ذكروا أن الفاء لتفريع العلة على المعلول أو المعلول على العلة [1] "وقد هذا الترتيب بالفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين " [2]

جملة الشرط وأسرارها (وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا)

جاءت هذه الجملة الشرطية " في موضع الحال" [3] تأكيدا لإثبات العدل التام، وتهديدا بأن هذا الميزان لايفوته شئ من الأعمال، وإن كان زنة حبة من خردل، وقد جاء جواب الشرط دالا على الوعيد الشديد (أتينا بها) وقد أسند الفعل إلى نون العظمة تخويفا وتهديدا، ودلالة على تمام الإحاطة، كما أن في الكلام إيجازا فإن المراد ما بعد الإتيان من المجازاة

---

(1) التحرير والتنوير ١٧/ ٨٥.
(2) إرشاد العقل السليم ٦/٧٠، روح المعاني ٩/٥٣.
(3) التحرير والتنوير ١٧/٨٥.

على العمل، لكن التركيب جاء على مـا هـو عليـه إعلانـا للغضب الشديد ، وقوله (من خردل) أي: ومن أحقـر منهـا "وإنما مثل به لأنه غاية في القلة ، وزاد في تحقيره بـضمير التأنيث لإضافته إلى المؤنث" [1]

ختام الآية ودلالته (وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ)

هذا التذييل الذي ختمت به الآية الكريمة، وزيدت الباء للتأكيد، وقيد المسند بـ(حاسبين) وهو حال أو تمييز فيه مـن التهديد ما يخلع القلوب و" الغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لايمكن أن يشتبه عليـه شـئ، وفـي القدرة بحيث لايعجز عن شئ حقيق بالعاقل أن يكون في أشـد الخوف"[2]

([1]) ينظر : نظم الدرر ٨٨/٥ ، إرشاد العقل السليم ٧٠/٦، فتح القدير ٤١١/٣، روح المعاني ٥٤/٩.

([2]) ينظر : مفاتيح الغيب ١٣٨/٢١، الفتوحات الإلهية ١٣١/٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي يسر وأعان ، ووفق وهدى ، والصلاة والسلام على من أوتى الحكمة والهدى، وبعد هذا الإبحار بآيات الكيل والميزان في الذكر الحكيم معايشة لأسرار نظمها، وملامسة لجلال بيانه ، يمكننا إجمال أهم ما وصل إليه البحث من نتائج فيما يلي:

١ــ أن الميزان ورد ذكره في الغالب مقرونا بذكر القرآن الكريم ، وفي ذلك إلماع إلى خطر أمره ، وعلو قدره، فشرفه من شرف ما قرن به.

٢ــ أن حديث القرآن عن الكيل والميزان له خصائص في معجمه اللفظي، فقد وردت ألفاظ في حديث القرآن عن الميزان ولم ترد في سواه ،وهي(القسطاس ــ المطففين ــ هاوية ــ يستوفون)

٣ــ وردت ألفاظ بصيغ اشتقاقية خاصة بحديث القرآن عن الكيل والميزان وهي (يخسر ــ تخسر ــ خفت)

٤ــ أن اشتقاقات لفظتي الكيل والميزان تنوعت في الذكر الحكيم على هذا النحو (الميزان ــ زِنوا ــ موزون ــ وَزَنوا

ــ الموازين ــ الوزن ــ الكيل ــ المكيال ــ نكتل ــ كلتم ــ اكتالوا ــ كالوا)

٥ ــ أن حديث القرآن عن الكيل والميزان وقع في عشرين سورة من الذكر الحكيم، ست عشرة سورة منها من النازل بمكة، وأربعة من النازل بالمدينة، وهو مما يلمع إلى خطر أمر الكيل والميزان، وأنه بمثابة العقائد في الأهمية ، حيث إن الذكر الحكيم في الفترة المكية كان يعني بالتوحيد ، وهذا مما يعني أن إيفاء الكيل والميزان مما تقام به الأمم ، وأن إضاعتهما فيه إضاعة للأمم .

٦ــ أن الأساليب البلاغية تنوعت في التعبير عن الكيل والميزان غير أن الأسلوب الحقيقي كان الأشيع ؛ ذاك أن الحديث عن الكيل والميزان حديث عن العدل والأبر بالحديث عن العدل لغة الحقيقة ، لا لغة المجاز ، لذا لم نجد المجاز إلا في الترغيب والترهيب في حديث القرآن عن الكيل والميزان هذا ويوصي الباحث أن تتوجه الهمم نحو بلاغة الذكر الحكيم استخراجا لكنوزه، وكشفا لأسراره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته.

المصادر والمراجع

- أسباب النزول للواحـــدي النيـــسابوري ط، دار الفكـــر بيروت ١٩٩٨م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ، ط، دار إحياء التراث العربي، بيـــروت،دون تاريخ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويـــل للقاضـــي البيـــضاوي بهامش حاشية زادة، ط،دار إحيـــاء التـــراث العربـــي، بيروت، دون تاريخ.
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تحقيق د/ عبد القادر حسين، ط مكتبة الآداب ١٩٩٦م.
- بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي تحقيق على معوض وآخرين، ط دار الكتب العلمية،بيروت ١٤١٣هـــ.
- البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبيـــر الثقفـــي الغرناطي تحقيق د/ سعيد الفلاح ، ط، جامعـــة قـــار يونس ١٩٨٨م .
- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ١٩٨٧م.

- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بـــن كثيـــر ط،عيسى الحلبي، دون تاريخ.
- تفسير جزء عم للإمام محمد عبـــده ، ط، دار الـــشعب ،دون تاريخ .
- تنوع الأفعال بين الفك والإدغام في الـــذكر الحكـــيم ، دراسة بلاغية د/ إبراهيم صلاح الهدهد ، نشر المؤلف ٢٠٠٣م.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ط، الدار التونسية ١٩٨٤م.
- الترجي في آي من الذكر الحكيم د/ إبـــراهيم صـــلاح الهدهد بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد الخامس عشر ١٩٩٧م.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ط،دار الريان للتراث ١٤٠٧هـــ.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط، الريـــان للتـــراث، دون تاريخ.
- حاشية الصاوي على تفـــسير الجلالـــين ط دار الفكـــر ١٣٩٧هـــ .

- حاشية محيي الدين شيخ زادة علـــى تفـــسير القاضـــي البيضاوي، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.
- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير القاضي البيضاوي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي ،ط بـــولاق دون تاريخ.
- الاحتباك في الذكر الحكيم مواقعه وأسراره د/إبـــراهيم صلاح الهدهد، نشر المؤلف ١٩٩٩م.
- خصائص التركيب د/ محمـــد أبـــو موســـى ط،وهبـــة ١٩٨٠م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثـــاني للسيد محمود شكري الألوسي ، ط،دار الكتب العلميـــة، بيروت ١٩٩٤م.
- سنن ابن ماجة للإمام ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبـــد الباقي ، ط دار الريان للتراث دون تاريخ
- سنن الترمذي تحقيق محمد فؤاد عبـــد البـــاقي ،ط،دار الكتب العلمية بيروت، دون تاريخ.

- صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخـــاري ط عيسى الحلبي دون تاريخ.
- صحيح الإمام مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط،دار الحديث ١٩٩١م.
- علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكـــريم ، دراســـة بلاغية ، نظرية ــ تطبيقيـــة (دكتـــوراه د/ إبـــراهيم صلاح الهدهد) بكلية اللغة العربية بالقاهرة.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري بهامش الطبري ط، دار الريان للتراث ١٤٠٧هــ .
- فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية مـــن علـــم التفسير للإمام للشوكاني، ط،دار المعرفة،بيروت، دون تاريخ.
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للشيخ سليمان الجمل، ط، عيسى الحلبي، دون تاريخ.
- القاموس المحيط لمجـــد الـــدين الفيروزآبـــادي، ط،دار الجيل،بيروت،دون تاريخ.
- الكتاب لسيبويه، تحقيق الأستاذ عبد الـــسلام هـــارون، ط،دار الكتب العلمية،بيروت١٩٨٢م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجـــوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري، ط،مـــصطفى الحلبي ١٩٧٢م.
- لسان العرب لجمال الدين بن منظور، تحقيق عبـــد الله علي الكبير،ومحمد أحمد حـــسب الله ، هاشـــم محمـــد الشاذلي ،ط،دار المعارف.
- مسائل الرازي وأجوبتها للرازي تحقيق إبراهيم عطـــوة ،ط، مصطفى الحلبي ١٩٦١م.
- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر د/ محمـــود توفيـــق محمد سعد ، ط الأمانة ١٩٩٣م.
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد الـــسور لبرهـــان الدين البقاعي تحقيق د/ محمد عبد السميع حسانين ،ط الرياض ١٤٠٨هـــ.
- المصباح المنير لأحمد المقري الفيومي ،ط، دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط،مصطفى الحلبي ١٩٦١م.

- مفاتيح الغيب للفخر الـــرازي، ط،دار الغـــد العربـــي ١٩٩٢م.
- ملاك التأويل لابن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيـــق،د/ سعيد الفلاح، ط،دار الغرب الإسلامي،١٩٨٣م.
- مقاييس اللغة لأبي الحسين بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، ط،دار الجيل،بيروت ١٩٩١م.
- من أسرار القيد بالحال في الـــنظم القرآنـــي،د/ محمـــد الأمين الخضري، بحث منشور بحوليـــة كليـــة اللغـــة العربية بالقاهرة، العدد الحادي عشر١٩٩٣م.
- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكـــيم د/ محمـــد الأمين الخضري ، ط وهبة ١٩٨٩م.
- المقام والمقتضى في السور الخالية من الأسماء الحسنى د/ إبراهيم صلاح الهدهد ، نشر المؤلف ٢٠٠١م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهـــان الـــدين البقاعي، ط،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتـــزال بهـــامش الكشاف ط،مصطفى الحلبي ١٩٧٢م.

****

فهرس الموضوعات

****

****